اقرأ
سلسلة ثقافية شهرية
تصدر عن دار المعارف

نجيب يوسف بدوى

التفاؤل والتشاؤم



اقرأ

سلسلة ثقافية شهرية
تصدر عن دار المعارف

[٣٠٩]

رئيس التحرير: رجب البنا

تصميم الغلاف : الفنان نجيب فرج

الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج . م . ع .

نجيب يوسف بدوى

التفاؤل والتشاؤم

الطبعة الثانية



دار المعارف

إن الذيـن عنـوا بإنشـاء هـذه السلسـلة ونشرها ، لم يفكروا إلا فـى شـىء واحـد ، هو نشر الثقـافة مـن حيـث هـى ثقافـة ، لا يريـدون إلا أن يقـرأ أبنـاء الشـعوب العربيـة . وأن ينتفعـوا ، وأن تدعوهـم هذه القـراءة إلى الاستزادة مـن الثقافـة ، والطموح إلى حياة عقلية أرقـى وأخصب من الحياة العقلية التى نحياها .

طه حسين

مقدمة

التطير - هو التشاؤم - من علامات الفأل الردىء، مثل: البومة والغراب والمرآة المكسورة ورقم ١٣... وغير ذلك من العلامات التى يعتبرها المتطيرون نذر سوء ويتوجسون منها الشر. ويقابل علامات الفأل الردىء، علامات أخرى للفأل الحسن، مثل: التعاويذ وحدوة الفرس والقط الأسود وخمسة وخميسة. . . وغيرها من العلامات التى تبعث على التفاؤل.

والتطير من هذه الرموز والعلامات وأشباهها ظاهرة قديمة كانت معروفة منذ أقدم العصور، كما أنها ذائعة الانتشار بين كثير من الشعوب، وبصفة خاصة بين الشعوب البدائية، كما لا تخلو منها تمامًا المجتمعات الحديثة الراقية.

ولفظ التطير مشتق من عادة زجر الطير. فقد كان العرب فى الجاهلية يزجرون الطير (أى يصيحون به أو يرمونه بحجر)، فإن ولاهم فى طيره ميامنة سموه سانحًا وتفاءلوا به، وإن ولاهم مياسرة سموه بارحًا وتشاءموا منه.

والدراسة العلمية لأى ظاهرة، تبدأ بتحديد موضوعها. والتطير ظاهرة محددة يمكن التعرف عليها، وتصلح للعزل والدراسة. والمقصود من التطير فى هذا البحث هو التشاؤم من نذر السوء وعلامات النحس، والتفاؤل من بشائر الخير وعلامات السعد.

وللطريقة العلمية خطوات محددة: تبدأ بجمع أمثلة عن الظاهرة المراد دراستها، ثم تصنيف هذه الأمثلة وتحليلها ومقارنتها، لاستخلاص النتائج منها فى النهاية. وإذا كنا فى البداية قد اتبعنا الطريقة المقارنة فى دراسة هذه الظاهرة، فجمعنا أمثلة للتطير، وقمنا بتبويبها، فقد وجدنا أننا نحتاج فى تفسيرها وتحليلها إلى الاستعانة بطرق البحث فى العلوم الاجتماعية والنفسية، وذلك لأن التطير ظاهرة اجتماعية ونفسية فى آن معًا.

وهذا الكتاب هو محاولة لدراسة التطير دراسة علمية من واقع أمثلته.

والله ولى التوفيق.

المؤلف

الفصل الأول

الأمثلة الشائعة للتطير

بعد أن جمعت أمثلة كثيرة للتطير، وأطلت النظر فيها، تبينت أنها تختلف فيما بينها من حيث النوع، ومن حيث الدرجة. واستطعت تصنيف حالات التطير في ثلاث فئات متدرجة في الشدة: حالات خفيفة – وحالات متوسطة – وحالات مرضية. وتتنوع أمثلة التطير، كما يختلف تفسيره وطريقة اكتسابه في كل حالة من هذه الحالات، على النحو المبين في الفصول التالية، ونبدأ في هذا الفصل بالحالات الخفيفة من التطير.

أبسط أنواع التطير هو الفأل، أو التفاؤل من الكلام الذى يسمع من الغير اتفاقًا، كأن تكون مريضًا فتسمع: يا سالم، فتتفاءل به، كما أن كلام الأطفال الذى يصدر عنهم عفوًا قد يكون لمن يسمعه ذا وقع حسن. وقيل في ذلك: «خذوا فالكم من عيالكم». وقد يوضح المثال التالى التفاؤل بالأسماء. حكى أن سعد بن أبي وقاص وجه إلى عمر رضى الله عنهما رسولا، فلما جاءه قال: ما اسمك؟ قال: ظفر. قال ابن من؟ قال: ابن قريب. قال: ظفر قريب إن شاء الله. وقد يدل هذا الكلام على اللباقة وحسن الاستقبال أكثر مما يدل على التفاؤل فعلا بالأسماء.

وقد يكون التطير من الوجوه. فمن الناس من يتساءل: «اصطبحت بوش مين؟» كلما صادفه نحسن فى يومه. ومنهم من يستبشر بوجه صبوح ويتفاءل به. وفى الأمثال العامية يقال: «يا قاعدين يكفيكم شر الجايين» للأنحاس المناكيد. كما يقال: «الخير على قدوم الواردين» لمن يستبشرون بهم من أصحاب الطلعة الميمونة وأقدام السعد.

يحكى أن بعض ملوك الفرس خرج إلى الصيد، فأول من استقبله أعور فضربه وأمر بحبسه، ثم ذهب للصيد فاصطاد صيدًا كثيرًا، فلما عاد استدعى الأعور فأمر له بمال، فقال: لا حاجة لى به، ولكن ائذن لى فى الكلام، فقال: تكلم، فقال: أيها الملك إنك تلقيتنى فضربتنى وحبستنى، وتلقيتك فصدت وسلمت، فأينا أشأم صباحًا على صاحبه!

وقد يكون التطير من الأوقات والأيام، فيقال إن فى يوم الجمعة ساعة نحس. أما يوم الأربعاء «فيوم نحس مستمر، فيه أغرق قوم نوح، ودمرت ثمود وأصحاب الرس، والحوائج فيه منحوسة عن طريق الفأل، فلا تخرج فى طلب حاجة».

وقد يكون التطير أو التفاؤل من الأرقام. فهناك أرقام مثل رقم ٧ ورقم ١٣ اكتسبت دلالات قديمة فى الميثيولوجيا والفولكلور واقترنت بارتباطات سارة أو مؤلمة. فيتفاءل بعض الناس برقم ٧ وهو رمز قديم فى الأساطير والأديان. وله علاقة بالأزمنة والأوقات. فالأسبوع سبعة أيام. ويتحكم فى حياة الإنسان دورات من سبع: فقد يولد الطفل بعد سبعة أشهر، ويعطى اسمًا فى «السبوع»، وتظهر أسنانه فى الشهر السابع

وتتجدد في السنة السابعة. . . ولهذا الرقم دلالات أخرى قديمة منها: الكواكب السبعة، والسماوات السبع، والبقرات السبع والسنابل السبع في قصة يوسف. ومن الأرقام التي تبعث على التطير رقم ١٣، ولذلك فهو مكروه، ويحذف عادة من أرقام حجرات الفنادق. ويقال في تعليل التشاؤم من رقم ١٣ إنه يرمز إلى يهوذا الذي خان السيد المسيح في قصة العشاء المقدس، وكان ترتيبه الثالث عشر. وقد ندم أشد الندم على خيانته فانتحر.

وقد يكون التفاؤل والتشاؤم من الألوان. فاللون الأبيض يبعث على التفاؤل، ويقترن بالفرح والسرور. واللون الأسود يبعث على التطير، ويدل على الحداد والحزن. واللون الأزرق من أكثر الألوان التي تبعث على التفاؤل بعد اللون الأبيض. أما اللون الأحمر فيدل على الحياة والحب والسرور والثراء. واللون الأخضر يرمز للحيوية والخصوبة، كما أن الخضرة هي لباس أهل الجنة. واللون الأصفر يدل على المرض، وعند أهل الغرب يدل على الجبن. وهذه هي الدلالات العامة المتعارف عليها التي تقترن بالألوان الأساسية. وقد تكون للألوان دلالات ذاتية خاصة تختلف من شخص إلى آخر تبعًا لاختلاف الأمزجة والأذواق وما يفضله كل شخص ويميل إليه من الألوان.

التطير من الرموز والتطير من الأعمال:

يجب أن نميز في هذه الحالات الخفيفة من التطير، بين التطير من الرموز والأشياء والعلامات من ناحية، والتطير من الأعمال من ناحية

أخرى. فمن أمثلة التطير من الرموز الاعتقاد في علامات الفأل الحسن، وعلامات الفأل الردىء. ومن أمثلة علامات الفأل الحسن: التعاويذ - حدوة الفرس - فرس النبى - القط الأسود - خمسة وخميسة، السلحفاة - الحمامة - كعب الأرنب. . . وغير ذلك من العلامات التي يعتبرها المتطيرون بشائر خير ويتفاءلون بها. ومن علامات الفأل الردىء: البومة - الغراب - رقم ١٣ - المرآة المكسورة - المداس «الحذاء» المقلوب. . . وغير ذلك من العلامات التى يعتبرها المتطيرون نذر سوء وعلامات للنحس. وهذه الرموز سواء أكانت من علامات السعد أو علامات النحس كلها رموز خارجية.

أما التطير من الأعمال، فمن أمثلته: التشاؤم من فتح المظلة داخل المنزل - ترك المبراة مفتوحة - كنس المنزل ليلا - تحريك المقص سريعًا فى الهواء دون أن يقص شيئًا - الدخول على السيدة المتزوجة حديثًا أو التى قامت من الوضع بمصاغ من الذهب أو بعقد من العقيق أو بلحم نيء أو بباذنجان. . . وهو ما يعرف عند العامة (بالكبس)، والاعتقاد بأن ذلك يؤدى إلى جفاف لبن الأم أو يحدث لها العقم. والتطير من هذه الأعمال من سمات أشخاص نقابلهم فى الحياة اليومية العادية: فإذا جاء ترتيب أحدهم الثالث، رفض أن يشعل سيجارته من نفس العود. وإذا سكب الملح على المائدة، تناول المتطير قليلا منه بين أطراف أصابعه وألقى به من خلف كتفه اليسرى. وإذا صادفه فى طريقه سلم خشبى مسند إلى الحائط امتنع عن المرور من أسفله ودار حوله. . .

ويقابل هذه الأعمال التى يمتنع المتطيرون عن إتيانها ويتوجسون منها الشر، أعمالٌ أخرى مرغوبة ودلالتها مقبولة. فإذا عثر المتطير فى طريقه على قطعة من النقود المعدنية الصغيرة احتفظ بها إلى حين لاعتقاده أنها تجلب له الحظ. وإذا سكبت القهوة سهوًا على ملابسه، فهى علامة أنه سيحصل على كسوة جديدة. وإذا نبش القط البساط بمخالبه فهذه علامة على أن ضيوفًا سيحضرون.

هذه أمثلة للحالات الخفيفة من التطير، وهى مأخوذة من العرف والتقاليد، وتكتسب بالإيحاء أو بالمحاكاة عن الوالدين خاصة ومن البيئة المنزلية عامة. وذلك لأن الطفل الذى يشب فى أسرة تعتقد فى هذه الخرافات، يتعود مجاراتها فيما تعتقد، وخصوصًا أن الوالدين لا يقدمان تفسيرًا مقبولا لاعتقاداتهم. ولا يحاولان تعليل ما يبدر منهما من سلوك ينطوى على التطير. ومعنى ذلك أننا نأخذ الاعتقاد فى هذه الخرافات عن آبائنا كما ننقل عنهم الجهل بأسبابها وعدم معرفة تعليل معقول لها.

ولو سألت المتطير من هذه الأعمال لما عرف لتطيره سببًا، لأن هذه التطيرات يتوارثها الناس على مر الأجيال دون أن يعرفوا منشأها. وكثير من هذه التطيرات يرتبط بمعتقدات قديمة. وغالبًا ما يكون لهذه التطيرات أسباب ومبررات، ولكنها نسيت بمضى الزمن، وظلت بقاياها فى معتقدات الناس دون أن يدركوا لتصرفاتهم وسلوكهم سببًا. ومن الأمثلة على ذلك: التشاؤم من تحطيم المرآة ومنشأ هذا التطير اعتقاد قديم هو أن خيال الإنسان فى

المرآة أو على صفحة الماء أو ظله على الأرض هو روحه، وأن ما يحدث للصورة المنعكسة أو للظل، يحدث كذلك لذات صاحبها. فإن أصابت الصورة أو الخيال ضربة أو طعنة، ألمت بصاحبها نفسه وعاناها، وقد صور هذا الاعتقاد ببراعة في قصة «صورة دوريان جراى». وقد نسجت حول هذا الاعتقاد الذى شاع بين كثير من الجماعات البدائية طائفة كبيرة من الأمور المحرمة التى تبعث على التطير. ومن أمثلتها اعتقاد الزنوج فى أعالى النيل أن التمساح قد يخطف الروح أو الظل المنعكس على صفحة الماء، فيموت صاحبه. ويتطير الهنود الحمر من النظر إلى صورتهم المنعكسة على الماء، خوفًا من أن يخطف شيطان الماء أرواحهم، ويتركهم بدون أرواح فيفنون. وكان الفراعنة يعتقدون أن انعكاس الصورة فى الماء أو فوق زجاج المرآة يمثل الروح أو ما كان يسميه قدماء المصريين «بالقرين». وبذلك يكون تحطيم المرآة نذيرًا بتحطيم الروح وفراقها للجسد. ولهذه المعتقدات نظائر فى المجتمعات الحديثة. ومن الأمثلة على ذلك حرص اللحاد على ألا يقع ظله على تابوت الميت عند إغلاقه، أو على قبره عندما يهيل عليه التراب. وإذا مات أحد أفراد أسرة محافظة، فإنهم يديرون المرايا ويجعلون وجهها إلى الحائط، وذلك لأن أرواح الموتى تنسب إليها القدرة على خطف أرواح الأحياء التي يغلق عليها مع الميت فى التابوت أو القبر، أو التى تنعكس فى المرايا.

ويتطير أهل الريف من نزول المرأة الحائض فى حقل مزروع بالخضر كحقل طماطم أو حقل باذنجان، ويعتقدون أن ذلك يؤدى إلى تلف المحصول وبوار الأرض. وهم يتطيرون من النجاسة بصفة عامة. ومنهم من إذا أهمل الاغتسال، وصادفه فى يومه نحس أو كارثة أو خسارة، نسبها إلى عدم طهارته. بل إنهم فى الريف ينسبون وقف الحال وقلة البركة عند أصحابها إلى عدم طهارتهم. وقد استخدم الاغتسال والاستحمام منذ أقدم العصور وعند كثير من الشعوب للتطهر من الذنوب. والاغتسال ولاشك أمر محمود، والنظافة شىء ضرورى ومرغوب فيه فى حد ذاته، ولكن التهويل من أمر النجاسة، وطقوس التطهر المعقدة وتكرارها بصورة رتيبة، قد تجعل الاغتسال أحيانًا نوعًا من الوسواس المتسلط.

والاعتقاد فى أثر الاغتسال فى صلاح الحال وراحة البال وكشف الكروب وذهاب الهموم، اعتقاد قديم راسخ. ويصور النابلسى هذا الاعتقاد تصويرًا بليغًا فى الدلالة القديمة التى تنسب للاغتسال فى الأحلام. فيقول فى كتابه «تعطير الأنام فى تعبير الأحلام»: «من رأى أنه اغتسل ولبس ثيابًا جددا، فإن كان مريضا شفاه الله تعالى، وإن كان مدينا قضى الله دينه، وإن كان محبوسًا نجا من حبسه، وإن كان مهمومًا فرج الله عنه همه، وإن كان فقيرًا أغناه الله تعالى، وإن كان تاجرًا أو سوقيًا وقد تعسرت عليه تجارته وسوقه وكسبه جود الله تعالى تجارته وسوقه وأذهب عنه همومه. . . فإن أيوب عليه السلام حين اغتسل ولبس ثيابًا جددًا، رد الله تعالى عليه أهله وأولاده وكل ما ذهب عنه».

وقلما تكون بداية التطير من شيء من الأشياء أو من عمل من الأعمال خبرة فردية حدثت لشخص معين، ولكن غالبًا ما يكون منشأ التطير خبرة جماعية. ولنضرب لذلك مثلا هو الامتناع عن المرور من تحت سلم الحائط الخشبي. قيل في تسويغ التطير من ذلك، إنه يرجع إلى بضعة قرون مضت، عندما كانت أحكام الإعدام تنفذ بشنق المجرم بحبل يربط إلى شجرة قريبة. وفي المدن كان يستخدم السلم الخشبي بأن يسند إلى الحائط، ويتدلى منه حبل يشنق به المجرم. ولا يجسر أحد على المرور من تحت السلم لأنه لا يريد أن يقترب من أي شيء يتصل بفكرة الإعدام. ومن هنا نشأ الامتناع عن المرور من تحت السلم الخشبي المسند إلى الحائط. واتبع الناس هذه العادة، دون أن يدركوا سببها أو منشأها.

الاقتران:

يمكن تفسير كثير من علامات الفأل والطيرة على أساس الاقتران. فالبومة من أشأم الطيور وأبعثها على التطير. وهي مكروهة وتطارد بقسوة لا لقبح نعيقها، ولا للرهبة التي تبعثها الهالتان المستديرتان حول عينيها، بل لأنها من طيور الليل التي لا تبصر إلا في الظلام، فتأوي بالنهار إلى الجهات المهجورة الخربة، حتى صارت كنيتها «أم الخراب». واقترنت البومة كذلك بالقبور. فمن المعتقدات القديمة أن الإنسان إذا مات أو قتل تتصور نفسه في صورة طائر، وتصرخ على قبره مستوحشة لجسدها. والطائر هو البومة. وبذلك وجد ارتباط أو اقتران بين البومة والأماكن الخربة والقبور. فأصبحت رمزًا للخراب وعلامة على النحس، ومثيرة أو داعية للتشاؤم.

والغراب من أعظم ما يتطير به أهل الريف. والقول فيه أكثر من أن يطلب عليه شاهد. فهم يتطيرون من اسمه وقبح شكله ونعيقه وحركاته. فاسمه مكروه لأنه يدل على الغربة، ونعيبه يدل على مصيبة، وإذا نبش في الأرض دل على الخراب ودفن الموتى. واعتبر الغراب شؤمًا لأنه - منذ بدء الخليقة - اقترن في القصص الدينية بارتباطات مشئومة. ففي قصة قابيل مع هابيل: ﴿ فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُرِيَهُۥ كَيْفَ يُوَٰرِى سَوْءَةَ أَخِيهِ ﴾ . كما أن نوحًا بعث الغراب ليعرف له أمر الماء فوجد جيفة طافية فوقع عليها واشتغل بها ولم يرجع، فأرسل الحمامة فأتته بورقة خضراء فدعا لها.

والقط الأسود يتفاءل به كثير من الناس، ويعتقدون أنه يجلب لهم الحظ. وإذا عبر طريقهم واتجه إلى اليمين، فهو بشارة خير ومدعاة للتفاؤل، أما إذا اتجه إلى اليسار فهو نذير سوء وعلامة على النحس. واقترن القط في التراث الميثولوجي بارتباطات كثيرة. والمصريون القدماء هم أول من استأنس القط. وقد عبدوه كإله، وحنطوه بعد موته ودفنوه في مقابر للقطط، ومعه فيران صغيرة محنطة. والقط الفرعوني تمثال مشهور لقط أسود، له قيمة فنية وتاريخية، بصرف النظر عن مغزاه عند المتطيرين. ونسب القدماء إلى القط قدرة غيبية، ولذلك امتنعوا عن إيذائه. ولا يزال بعض العامة يعتقدون أن القط يتقمص عفريت الميت أو أن روح الميت تتناسخ فيه. ولهذا الاعتقاد نظير في المعتقدات الخرافية التي كانت سائدة في أوربا في العصور الوسطى، ومنها أن الشيطان يتجسد في شكل قط. كما أن العلاقة وثيقة في هذه المعتقدات

بين القطط والساحرات. فقد تتحول الساحرة إلى قط، أو يصحب الساحرة شيطان تابع فى شكل قط. وتستخدم الساحرة جمجمة القط فى الأعمال السحرية.

ويفسر الاقتران كذلك التفاؤل بحدوة الحصان، وهى ذائعة الانتشار فى معظم أنحاء العالم، إذ يعتقد كثير من الناس أن حدوة الحصان تجلب الحظ الحسن، وتمنع الحسد، وتبعد الأرواح الشريرة، وتقى من الأمراض ومن فعل السحرة، ولذلك تسمر عادة فوق أبواب المساكن، وكانت تسمر كذلك على ساريات السفن الشراعية. وقيل إن نلسن علق حدوة حصان فى أعلى سارية السفينة فيكتوريا فى معركة الطرف الأغر. ويقال فى تعليل التفاؤل بها إنها اقترنت بمولد السيد المسيح فى الإسطبل أو فى مذود البقر.

التفسير الجنسى لرموز التطير :

يمكن أن نطلق على تفسير رموز التطير وعلاماته على أساس الاقتران: «التفسير الوظيفى»، وهو التفسير الذى يسترشد بدلالة الرموز فى التراث الميثولوجي. ويقابل التفسير الوظيفى للرموز: «التفسير المادى» لها الذى ينادى به علماء النفس التحليليين. والتفسير المادى للرموز تفسير جنسى. ويقول رجال التحليل النفسى إن كثيرًا من التعاويذ ورموز الفأل الحسن عبارة عن رموز جنسية. فمن الرموز الجنسية المؤنثة حدوة الحصان، والدليل على ذلك أن الألمان يقولون فى لغتهم الدارجة على من فقدت بكارتها: إنها فقدت حدوة حصانها. وكثيرًا ما تصنع

التعاويذ على شكل حدوة فرس أو حذاء دقيق. والحذاء أو الشبشب والمنزل والدبلة كلها رموز جنسية مؤنثة. ومن الرموز الجنسية المذكرة المظلة والمقص والمبراة المفتوحة وترمز كلها لعضو التذكير. وعلى ذلك يكون فتح المظلة داخل المنزل رمزًا للعملية الجنسية، ولكن لماذا يعتبر فألا رديئًا وعملا محرمًا؟ قد تكون رمزًا للاتصال الجنسي بالمحارم. ومن الأعمال التي تبعث على التطير تحريك المقص في الهواء دون أن يقص شيئًا، وقد يرمز إلى الجنسية الذاتية (نظرًا لعدم وجود موضوع) أى إلى العادة السرية. أما سكب الملح سهوًا على المائدة، فيسهل إدراك دلالته إذا عرفنا أن الملح رمز للمنى. وعلى ذلك قد ترمز هذه الظاهرة التى تبعث على التطير إلى الاستمناء. وخمسة وخميسة وهى أصابع اليد الخمسة المخضبة بالحناء أو الدماء المبصومة على الحائط، من علامات الفأل الحسن، وتعتبر تعويذة ضد الحسد، وقد ترمز من طرف خفى إلى اليد التى تمارس العادة السرية. أما المداس المقلوب، والمرور أسفل السلم الحائطى فقد يرمزان للشذوذ الجنسى.

والرموز الجنسية فكرة موجهة فى التحليل النفسى، يستخدمها رجاله في تفسير الأحلام وفى علاج الأمراض النفسية كما يطبقونها فى كثير من المجالات. والحقيقة أن تفسير التحليل النفسى للتعاويذ ولرموز التطير بأنها رموز جنسية يعتبر تفسيرًا جزئيًا. وللتحليل النفسى مساهمات أخرى أصيلة وآراء نافذة فى تحليل الدوافع اللاشعورية للتطير، وسنشير إليها فى الفصول التالية.

اثر المهنة فى التطير :

للمهنة دخل كبير فى القابلية للتطير. وكلما تدخلت عناصر المصادفة والحظ فى مهنة كان احتمال قابلية أصحابها للتطير كبيرًا. ولذلك يأتى فى مقدمة المتطيرين المحاربون والصيادون والمقامرون.

فالجندى فى الميدان قلبه بين يديه. وللحظ والمصادفة دخل كبير فى رسالته، فرصاصة طائشة قد تودى بحياته، وحركة شاردة قد تكون فيها نجاته.

والصياد كذلك من أكثر الناس اعتمادًا على المصادفة والحظ، ولا تغنيه مهارته فى الصيد إذا لم يجد ما يصيد. فالصيد مورد غير مضمون ولا ثابت للرزق، لأنه يتوقف على عوامل ليس إلى التحكم فيها من سبيل. فهناك أوقات يمتنع فيها الصياد عن الصيد أو يجفل منه، وأوقات أخرى يواتيه الحظ فيلتقى بصيد سهل المنال.

كذلك يعتمد المقامر اعتمادًا مطلقًا على الحظ، ويؤمن بالقدرة المطلقة لتوقعه، ويلتمس النتائج من أيسر السبل وهو احتمال الكسب الذى ينسبه بافتخار إلى نفسه. أما الخسارة فينسبها إلى سوء الحظ، لأن لعب القمار لا يخضع لأى منطق، وإنما هو متوقف على المصادفة والحظ.

ومن مظاهر التطير حمل التعاويذ. وقد تكون التعويذة حجابًا أو خاتمًا أو قلادة أو تمثالا دقيقًا أو غير ذلك. ويحمل كثير من المحاربين والصيادين والمقامرين هذه التعاويذ معهم لا يفارقونها ولا تفارقهم لاعتقادهم أنها تجلب لهم الحظ وتدفع عنهم الضرر.

ومن الملاحظ أن أكثر الناس تطيرًا هو من وجد نفسه فى نعمة لا يستحقها، ويخشى أن تزول. . هو من أوتى الحظ الحسن، فحالفه نجاح سريع، أو أصاب ثروة من طريق سهل، أو تولى منصبًا كبيرًا بغير جدارة. إنه يتوقع دائمًا أن يدفع الثمن. ويشفق من تغير الحال وغدر الزمان. ويخاف من شيء غامض مجهول يخبئه له القدر، كرد فعل لما حالفه من حظ حسن ونجاح سهل أخل بتوازنه النفسى. ولذلك فهو يخاف من الحسد، ومن «قر» الناس، ويتوخى الحرص والحذر، ويتوجس الشر، لأن لكل فعل رد فعل مساويًا له فى المقدار ومضادًا له فى الاتجاه. ويكون مثله كمثل من أكل من الفاكهة المحرمة، فإنه يتوقع العقاب على هذا الإثم أو الذنب، عقابًا يأتيه على شكل شر ونحس يتربص به ويتهدده، وكأنه القصاص العادل. وإذا أصابه مكروه، أو ألمت به كارثة، قال إنه كان يعرف أنها آتية لا ريب فيها، وإنه كان ينتظرها ويتوقعها، ويعلم أن شيئًا من هذا القبيل سيحدث. وأعرف تاجرًا من أغنياء الحرب، بدأ من لا شيء، وجمع ثروة طائلة من تجارة البصل.. كان شديد التطير حتى إنه أغلق على نفسه باب منزله، وامتنع عن مقابلة الناس فى يوم جمعة وافق ١٣ من الشهر.

اثر البيئة فى التطير :

ليس التطير ظاهرة فردية فحسب بل إنه ظاهرة اجتماعية كذلك. فالتطير إن كان من سمات بعض الأفراد العاديين الذين نقابلهم فى الحياة اليومية، فإن رموزه وعلاماته تستمد غالبًا من العرف والتقاليد

السائدة في المجتمع. وكلما زاد انتشار المعتقدات الزائفة في مجتمع، زاد احتمال تعلق أفراده بأهداب الخرافات. وخير شاهد على ذلك هو الجماعات البدائية التي تنتشر بينها الخرافات والتطورات والمحظورات، ويعيش أفرادها في رعب دائم من الغيبيات. ويمكن القول بصفة عامة إن التعلق بأهداب الخرافات والخضوع لسطوة الغيبيات أكثر انتشارًا بين المجتمعات التي تعيش على الصيد والرعي والزراعة منه بين المجتمعات التي تعيش على الصناعة. كما أن الاعتقاد في الغيبيات والإيمان بالخرافات كان أكثر انتشارًا في العصور القديمة منه في العصر الحديث. ولذلك نلاحظ أن الرموز التي تبعث على التطير رموز قديمة، ويجب ألا نتوقع التطير من رموز أو أشياء أدخلتها المدنية الحديثة. وتعتبر قلة الخرافات والمعتقدات الزائفة في مجتمع ما دليلا على تقدمه، كما يعتبر انتشار الخرافات في مجتمع آخر دليلا على تأخره.

وهذا القول الذي يصدق على المجتمعات، يصدق كذلك على الأفراد. فاعتقاد الفرد في الخرافات يخرجه من عداد الأسوياء. ويعتبر التطير من السمات غير السوية. فالشخص السليم لا يتطير ولا يتشاءم. والحالات المتطرفة من التطير تدخل في عداد الحالات الشاذة أو المريضة. والحق أن الأعراض الشاذة التي تصيب شخصية الأفراد بالانحلال والتفكك، قد تصيب كذلك المجتمع الذي يتكون من مجموع الأفراد، لأن المجتمعات لها خصائص الترابط والتكامل بما يشبه تكامل الشخصية في الأفراد. وقد

تصاب شخصية المجتمع بـالأعراض التـى يصـاب بـها الأفـراد. كمـا أن أمراض المجتمع قد تنتقل بالعدوى إلى الأفراد.

والتطير كان له ما يبرره في العصـور القديمـة لأنـه يتفـق مـع الحالـة العقلية التي كانت سائدة، ويتمشـى مـع مـا سـاد فـى هـذه العصور مـن جهل وتأخر واعتقاد فى الخرافات. أما فى العصر الحديث فلـم يعد لـه محل بعد كل هذا التقدم فى العلوم، وبعد تفجير الذرة وارتياد الفضاء.

الفصل الثانى

طريقة إكتساب التطير

الأمثلة الشائعة التى ورد ذكرها فى الفصل الأول لعلامات الفأل الحسن وعلامات الفأل الردىء، كلها من الحالات الخفيفة من التطير. وجميع الرموز والعلامات فى هذه الأمثلة عبارة عن رموز خارجية. ويكتسب التطير من هذه الرموز والعلامات بالتقليد والمحاكاة من البيئة المنزلية ومن التقاليد. ويلعب الاقتران دورًا هامًا فى تفسير اكتساب هذه الرموز والعلامات الخارجية دلالات خاصة ميمونة أو مشئومة، وإن كان أصحاب التحليل النفسى يعتبرون بعض هذه الرموز رموزًا جنسية.

وأشد من الحالات الخفيفة للتطير من الرموز الخارجية الحالات المتوسطة للتطير من الرموز الداخلية، التى تبدو فى الأكال والاختلاج. والأكال هو (هرش) كف اليد أو بطن القدم. والاختلاج يكون فى مختلف أعضاء البدن من الرأس إلى القدم ولكنه يبدو بصفة خاصة فى (رف) العين. وهذه الرموز والمنبهات الداخلية التى تبدو فى الأكال والاختلاج رموز خاصة ذاتية. وفيها يقرن المتطير بين الرموز والنتيجة ويرتب على ظهور الرمز نتائج معينة يترقب حدوثها. فإذا شعر المتطير بأكال فى راحة يده اليمنى توقع أن يقبض نقودًا بيمينه، أو توقع أن يسلم على

آت من سفر. وإذا اختلجت (رفت) عينه اليمنى فإنها بشارة خير. أما عينه اليسرى فهي نذير شؤم. وإذا أحس بطنين في أذنه اليمنى توقع أن يسمع نبأ سارًا، أما طنين الأذن اليسرى فينبئ عن السوء والكدر. ولليمنى من كل هذه الرموز الداخلية توقعات. ولليسرى توقعات أخرى وهكذا.

هذه الحالات لا يستقيم تفسيرها على أساس الإيحاء أو المحاكاة وحسب، نظرًا لاختلاف المتطيرين من هذه العلامات بشأن مغزاها وما يتوقعونه منها، وعدم اتفاقهم على دلالة المنبه أو الرمز الواحد: فالبعض منهم يتخذه بشير خير ويتفاءل به، والبعض الآخر يتخذ نفس هذا الرمز نذير سوء ويتشاءم منه. كذلك لا يفسر لنا الإيحاء لماذا تكتسب بعض الرموز والعلامات مغزى خاصًا عند بعض المتطيرين، على حين أن رموزًا وعلامات أخرى لا يلتفتون إليها وليس لها عندهم أي مغزى.

الفعل المنعكس الشرطي والتطير:

نستطيع أن نفسر هذه الحالات على أساس اكتساب الفعل المنعكس الشرطي. ويمكن اعتبار التطير من الرموز والمنبهات الداخلية من قبيل الاستجابات المكتسبة الشرطية. وكلما شاءت المصادفة أن يقبض المتطير نقودًا بعد أن شعر بأكال راحة يده اليمنى، أو أن يسمع خبرًا سارًا كما أنبأته بذلك عينه اليمنى، رسخ الاعتقاد في صدق هذه النذر أو البشائر. والمعول عليه في تكوين هذه

الاستجابات الشرطية للعلامات والرموز هو تكرار اتفاق المصادفة، ومطابقة النتائج لدلالة الرموز، وتكرار ما يبدو من تحقق ما سبق له أن توقعه. وهنا يدخل عامل المصادفة. فظروف الموقف لا تحتمل إلا واحدًا من اثنين: أن تأتي النتيجة إيجابية أو أن تأتي سلبية، أن تكون أو ألا تكون، أن تأتي بخير أو تأتي بشر. فنسبة المصادفة ٥٠٪. ويترتب على تكرار ظهور رمز معين مرتبط بحادث سعيد لشخص ما أن يصير هذا الفعل المنعكس الشرطي رمزًا للتفاؤل. ويترتب على تكرار ارتباط الرمز أو المنبه بالنتيجة السارة أن يصبح بمجرد ظهور الرمز أى المنبه الشرطي داعيًا أو مثيرًا للتفاؤل. وكذلك يترتب على تكرار ارتباط هذا الرمز نفسه أو غيره من الرموز عند شخص آخر بحوادث نحس، أن يصبح هذا الرمز مثيرًا للتشاؤم. فإذا (رفت) عينه اليسرى ثم صادفه في يومه ما يكدره، أصبح (رف) العين اليسرى رمزًا مرتبطًا بحوادث نحس، ومنبهًا شرطيًا يتوجس منه الشر، ونذيرًا بالسوء، وباعثًا على التشاؤم.

وتكاد هذه الحالات تنطبق انطباقًا تامًا على تجربة (بافلوف) المشهورة التى استطاع بها أن يوجد عند كلبه ارتباطًا شرطيًا بين دق الجرس وتقديم الطعام، ترتب عليه سيل لعاب الكلب لمجرد سماعه دق الجرس. ودق الجرس هو المنبه الشرطي أو الرمز، ويقابله فى أمثلة التطير منبه شرطي أيضًا هو النذير أو البشير. وسيل لعاب الكلب يقابله التشاؤم أو التفاؤل. أما تقديم الطعام – وهو المهم والمعول عليه –

فيقابله تحقيق الحادث فعلا واتفاق النتيجة مع ما تعارف عليه المتطير من تطيره بسعد أو بنحس. وقد يكون تحقيق الحادث فعلا باعثًا إيجابيًا هو بمثابة الجزاء الذى يساعد على رسوخ الاعتقاد.

ولا تقف المقابلة بين اكتساب التطير والفعل المنعكس الشرطى عند هذا الحد، بل إن تعدد الرموز التى يعتبرها المتطيرون بشائر خير أو نذر سوء، يقابله فى تجارب (بافلوف) تنوع المثيرات (السمع — الرؤيا — الشم — اللمس) التى تمكن بواسطتها من إيجاد استجابة شرطية واحدة هى سيل اللعاب. وكما أن الفعل المنعكس الشرطى يثبت بالتكرار، فكذلك يؤدى تكرار اتفاق المصادفة مع المتطير بحدوث ما يتوقعه من تطيره، إلى توثيق الارتباط الشرطى وتثبيته، فيجعله يجزم أن عينه لا تكذب أبدًا. ولا يتعرف المتطير عادة إلا على الحادث الذى يتفق مع ما يتوقعه من تطيره. فهو يترقب مثل هذا الحادث من دون الحوادث الكثيرة التى تمر عليه فى يومه ويتهافت فى التعرف على أية بادرة أو سانحة تؤيد توقعه. فى حين يميل المتطير إلى أن يسقط من حسابه الحوادث التى أخلفت ظنونه وينساها وقد لا يتعرف عليها أصلا.

وإذا كان الفعل المنعكس الشرطى يقوى بتكرار الارتباط بين النتيجة والرمز، فإن تكرار عدم الارتباط بين النتيجة والرمز يؤدى إلى انفصام عرى الارتباط الشرطى وزواله. فالكلب الذى يتعلم إفراز اللعاب عند سماع قرع الجرس، بعد أن كان قد قدم له الطعام عدة مرات مقترنًا بقرع الجرس، يتعلم أيضًا عدم إفراز اللعاب إذا قرع الجرس عدة مرات بدون

أن يتأيد هذا المنبه الصناعى، بتقديم الطعام وهو المنبه الطبيعى لإفراز اللعاب. وعلى ذلك فإن تكرار عدم الارتباط بين النتيجة والرمز يؤدى إلى زوال الاستجابة المكتسبة الشرطية للتطير. فالرموز التى لا تتأيد بالنتائج المرجوة منها، تصبح رموزًا عقيمة.

قد يبدو لنا أن نتساءل عن دوافع الاختلاج والأكال. فما السبب فى حدوث هذه المنبهات الداخلية؟ قد يكون رف العين والأكال فى راحة اليد من قبيل الأفعال المنعكسة غير الخاضعة للإرادة. وقد يكون لها دوافع لا شعورية نتيجة لمواقف الترقب والتوقع وما قد يصاحبها من قلق وتوتر. وقد تظهر هذه المنبهات نتيجة للمخاوف. وبذلك يبدو وكأنما لا يصادف المتطير حوادث النحس كنتيجة لأن نذير السوء هو أن عينه الشمال (رفت)، وإنما (رفت) عينه الشمال لأنه توجس الشر من قبل. وقد تكون هذه المنبهات نتيجة للرغبات، وبذلك لا تأتى النقود لأن المتطير شعر بأكال فى راحة يده اليمنى، وإنما شعر بهذا الأكال لحاجته الملحة إلى نقود! وكلها تصادف ورود النقود بعد ذلك، وتكرار اتفاق المصادفة، أضيفت توكيدات جديدة للارتباط الشرطى تزيده تثبيتًا.

بعض التجارب :

الشرطان اللازمان لتكوين الاستجابة المكتسبة الشرطية هما: الجزء من الموقف الذى يرمز للموقف كله، والتكرار للتثبيت. والاستجابة للرمز أى للجزء من الموقف الذى يرمز للموقف كله، طريقة ثابتة ومؤكدة بالتجربة، ويعرفها الذين يربون الدواجن والحيوانات. وتستخدم فى تدريب

الحيوانات وترويضها على القيام بأعمال معينة أو علـى ألعاب السيرك. فنحن نتعجب عندما نرى الدب مثلا يرفع رجليه الأماميتين لدى سماعه لدقة معينة على الطبـل. يتم ترويض الدب على هذه الحركة بربطه أو وضعه فيما يشبه البرميل، ثم تلسع رجليه الأماميتين بالنار، فى الوقت الذى يدق فيه الطبل بطريقة معينة. يستجيب الدب للمنبه الطبيعى وهو لسع النار برفع رجليه الأماميتين إلى أعلى، فى الوقت الذى يستمر فيه دق الطبل. وبذلك يصبح مجرد سماع دق الطبل «نذيرًا» باللسع بالنار. وبتكرار هذا العمل مرات عديدة، يتعود الدب الاستجابة للرمز وحده، أى للمنبه الصناعى، وهو دق الطبل، بالوقوف ورفع رجليه الأماميتين. ثم يقدم له بعد ذلك طعامه المفضل على سبيل الجزاء الذى يساعد على تثبيت الاستجابة المكتسبة الشرطية.

وبنفس الطريقة يدرب الفارس الصقر الذى يعاونه فى الصيد على الوقوف على ذراعه اليمنى. يضع قطعة صغيرة من اللحم فى كف يده اليمنى. ويرفع ذراعه ويثنيها عند الكوع لتصير فى محاذاة الكتف، فيحط الصقر على ساعده لكى يلتقط اللحم من كفه. وبتكرار إطعام الصقر بهذه الطريقة، يتعود الاستجابة للفارس كلما رفع ذراعه على هذا النحو، فيسارع بالوقوف عليها طمعًا فى الجزاء.

وتفسر الشرطية كذلك التطير من الأعمال، أى الامتناع عن إتيان أعمال معينة خوفًا مما قد يترتب عليها من نتائج ضارة أو خطرة. ويمكن على سبيل المثال تفسير ا لتطير من إشعال ثلاث سجائر بعود واحد من الثقاب على أساس الشرطية. يقال فى تعليل التطير من هذا

العمل إنه يرجع إلى أيام الحرب العالمية الأولى عندما كان الجنود يمضون أوقاتًا طويلة في الخنادق. وعندما يشعل ثلاثة منهم سجائرهم بعود واحد من الثقاب، كان ثالثهم يصاب برصاص الأعداء. وذلك لأن عود الثقاب المشتعل يكون في الليل هدفًا تراه خطوط الأعداء. و في المدة التي يشعل فيها الأول والثاني سجائرهم يكون العدو قد أحكم التصويب فيصيب الثالث. وأدى تكرار هذا الحادث إلى نشوء هذا التحريم أو التطير.

وهناك أمور محرمة ينعقد إجماع كثير من الناس على التطير منها ويمتنعون عن إتيانها، وهي أمور متعارف عليها لأنها مستمدة من التقاليد السائدة في المجتمع. وقد تأيد بالتجربة إمكان تكوين استجابة جماعية للأمور المحرمة. ووصل المجرب إلى عمل تجربة عن تثبيت الإحساس بالمحرم لدى مجموعة من القرود بالطريقة الآتية:

علق إصبع موز في رأس عمود بعيدًا عن متناول جماعة من القرود في قفص. وعندما تسلق واحد منها العمود، وأمسك الموز، أطلقت مياه ساخنة على أرض القفص، فتضايقت جميع القرود ما عدا ذلك الذى كان متسلقًا العمود يأكل الجائزة التي حصل عليها. ولم يتطلب الأمر منهم وقتًا طويلا ليتعلموا سبب فيضان الماء في القفص. وسرعان ما كان يعاقب كل قرد يحاول الصعود لأخذ الموز. فالفاكهة المشتهاة كانوا ينظرون إليها بافتتان من بعيد، وأصبحت محرمة على كل القرود في القفص. وهذا الموقف يوضح طبيعة كثير من محرماتنا الاجتماعية،

ويبين كيف أنه حتى فى المواقف المعقدة يمكن القيام بها تجريبيًا ودراستها. (نقلا عن: ج. ب. جيلفورد «ميادين علم النفس»).

ولا يفوتنا أن نلاحظ توافر الدافع فى جميع هذه التجارب والأمثلة، فهو شرط ضرورى لتكوين الاستجابة المكتسبة الشرطية. وقد يكون هذا الدافع هو الجوع أو الخوف أو الدوافع اللاشعورية التى كشف عنها التحليل النفسى. فعندما يتوافر أحد هذه الدوافع، يمكن إحداث التطير من أحد الرموز أو العلامات بطريقة تجريبية. ويشترك الإنسان مع الحيوان فى هذه القدرة على الاستجابة للرمز والامتثال له. ويدل إمكان تكوين استجابة للرمز أو تكوين استجابة مكتسبة شرطية المرة تلو الأخرى بطريقة تجريبية على أن التطير صفة مكتسبة، وأنه يمكن أن يكون له أكثر من نشأة واحدة.

الاختلاف والتشابه فى رموز التطير وعلاماته :

لكل شعب رموزه وعلاماته الخاصة التى يتفاءل بها أو يتطير منها. وتختلف رموز التطير وعلاماته من شعب إلى آخر. فالرموز والعلامات التى تتطير منها الجماعات البدائية، تختلف عن الرموز والعلامات التى كان يتطير منها أهل العصور الوسطى. كما أن سكان شمال أوربا يتطيرون من رموز وأعمال تختلف عما يتطير به سكان جنوب شرق آسيا. ونحن نعلم أن الشرق له تطيرات خاصة، والغرب له تطيرات أخرى. فمن التطيرات التى وصلت إلينا من الغرب - ولم يكن لها فى الشرق نظير - التطير من المرور من تحت سلم الحائط

الخشبى، والتطير من إشعال ثلاث سجائر بعود واحد من الثقاب، والتطير من انسكاب الملح على المائدة، ولمس ا لخشب حتى لا ينطوى الكلام على الحسد. ومن بين التطيرات التى ظلت حية فى تراثنا الميثولوجى منذ أيام قدماء المصريين: التطير من القط الأسود، ومن المرآة المكسورة. ومن الرموز المسيحية: حدوة الحصان ورقم ١٣. ومن العادات التى كانت شائعة عند العرب فى الجاهلية: زجر الطير والتفاؤل بسانحه، والتشاؤم من بارحه.

وإلى جانب الرموز والعلامات الخاصة بكل شعب من الشعوب، والتى تختلف من شعب إلى آخر، هناك رموز أخرى وعلامات متشابهة، والتطير منها ذائع الانتشار فى معظم أنحاء العالم، مثل التفاؤل بحدوة الحصان وكعب الأرنب، والتشاؤم من البومة والغراب. فكيف يمكن تفسير هذا التشابه؟ وهل نشأ التطير من رمز من الرموز أو من عمل من الأعمال فى مكان واحد، ومنه انتشر إلى جهات أخرى، أو أنه يمكن أن يكون لمثل هذا التطير أكثر من نشأة واحدة؟

ليس من شك فى أن التطير من بعض الرموز أو الأعمال يمكن أن ينتشر من مكان إلى آخر بالتقليد والمحاكاة. وقد يفسر هذا الانتقال التشابه فى بعض رموز التطير وعلاماته الذى نجده فى أماكن متباعدة وأزمان مختلفة. ومن ناحية أخرى، يمكن أن يكون للتطير كذلك أكثر من نشأة واحدة، فقد أثبتت تجارب الفعل المنعكس الشرطى. والتجارب التى أجريت على القردة، إمكان تكوين استجابات معينة للرموز، أو اكتساب التطير من الرموز

المرة تلو الأخرى بطريقة تجريبية، متى توافر الدافع والمنبه الطبيعى، والمثير الصناعى أو (الرمن)، والجزاء. وبذلك قد يكون التشابه فى بعض رموز التطير وعلاماته، بين الشعوب المختلفة وفى العصور المختلفة، مرجعه إلى طبيعة العقل البشرى الذى يستجيب للمؤثرات المتشابهة بطريقة واحدة، وقد يكون مرجعه إلى المصادفة وحدها.

الفصل الثالث

التحليل النفسى للتطير

لا تغنى معرفة طريقة اكتساب التطير بالفعل المنعكس الشرطى عن دراسة دوافعه اللاشعورية التى كشف عنها التحليل النفسى. ولذلك يجب أن نضيف إلى ميكانيزم اكتساب التطير على أساس الفعل المنعكس الشرطى، الدوافع اللاشعورية له. وقد أسهم فرويد وتلاميذه من رجال التحليل النفسى فى الكشف عن الدوافع اللاشعورية للتطير بدراسة الأفعال أو الحركات العرضية Symptomatic Acts؛ وقبل أن نتناول تفسير فرويد للتطير، نبدأ بتحليل بعض أمثلة للتطير من الأفعال أو الحركات العرضية.

العثرة:

يتطير كثير من الناس من العثرة أو زلة القدم، ويعتبرونها نذير سوء ويتوجسون منها الشر. ويقولون: من خرج فعثر فلا يذهبن فى تلك الحاجة وليؤخرها. وينصحون من كان على سفر وتعثر أو زلت قدمه بأن يعدل عن السفر. والعثرة التى تبدو وكأنها حادث غير مقصود وقع سهوًا، ليست فى الواقع ظاهرة اتفاقية، بل إن لها معنى وترمى إلى غرض. ولهذا الفعل فى رأى التحليل النفسى دوافع لا شعورية هى

التردد والإحجام وتوجس الشر، أو تنم عن دوافع أخرى خاصة تنتمى للحياة اللاشعورية لمن تعثر أو زلت قدمه.

والتطير من العثرة اعتقاد قديم وذائع الانتشار. ومن الأمثلة المشهورة التى يرويها التاريخ لهذا النذير، أن وليم دوق نورماندى عندما وطئت قدمه لأول مرة شاطئ إنجلترا، زلت قدمه وتعثر، فتطير من ذلك أتباعه. وما تطيرهم فى رأى التحليل النفسى إلا «حالة نفسية أسقطت فى العالم الخارجى» فقد جاء تعثره مطابقًا لما يخالج نفوس أتباعه من رهبة وإشفاق من مصير الحملة المعلق فى كفة القدر. ومعنى ذلك بقول آخر هو أن دلالة النذير الخارجية - وهى الإشفاق من الفشل - هى ذاتها الدلالة اللاشعورية، على التردد وتوجس الشر.

ويحسن المتطير صنعًا إذا عدل عن السفر لعثرته. فالعثرة أو زلة القدم تدل على وجود شك وتردد وتوجس للشر من السفر، وهو أمر غير مأمون العاقبة لمن كان على سفر. فكثير من حوادث التصادم أو السقوط التى تبدو قضاء وقدرًا، لا ترجع للمصادفة، بل يكون لها دوافع لا شعورية، وتنطوى على حتمية وسبق إصرار، وتتم طبقًا لخطة موضوعة لا شعوريًا. وقد تكون الرغبة فى العقاب، دافعًا إلى تعريض النفس للخطر فى حوادث السقوط أو الاصطدام. وليس بمستغرب أن نجد من صدر عنه هذا الفعل العرضى وهو العثرة، يسهم بنفسه لا شعوريًا فى جلب النتيجة المتوقعة. وقد يؤدى استمرار وجود الدافع إلى حدوث ما لا تحمد عقباه، فيقع للمتطير حادث يقول الناس فيه إنه قضاء وقدر، مع أنه محتم أو مقدر لا شعوريًا. فالدافع اللاشعورى

يؤدى إلى العثرة، واستمرار هذا الدافع قد يؤدى إلى حدوث مكروه. وفى حالة الجهل بالدافع يبدو كأن التطير من العثرة كان له ما يبرره، كما لو كان نذيرًا.

ضياع الدبلة:

يتطير بعض الأزواج والزوجات من ضياع خاتم الزواج أو الدبلة، ويوجسون من أن يكون ذلك نذيرًا بوقوع الطلاق. ويعتبر أصحاب التحليل النفسى ضياع الدبلة حركة عرضية لها دوافع لا شعورية، وتنم عن الرغبة فى التحرر من هذا القيد، قيد الزواج أو الدبلة. وعلى ذلك فالدلالة الخارجية المتوقعة من هذا النذير، هى ذاتها الدلالة اللاشعورية. ولا يرجع ضياع خاتم الزواج إلى المصادفة، وإنما يبدو أن هناك نوعًا من الحتمية لحالة نفسية فى الحركة العرضية التى عبرت عن دافع داخلى هو الرغبة فى الطلاق. فلو لم يكن أحد الشريكين راغبًا فى الطلاق، لما أضاع خاتم الزواج سهوًا وبدون قصد. وليس بمستغرب أن يشترك فى جلب النتيجة المتوقعة فعلا من صدرت عنه مثل هذه الحركة العرضية. وعلى ذلك قد يكون للتطير من فقدان الخاتم ما يبرره، إذا عمل الزوج الذى أضاع الخاتم على إتمام الطلاق، فالدافع يوجد الحركة العرضية، واستمرار وجود الدافع يساعد على تحقيق ما يتوقعه المتطير من تطيره. وفى حالة الجهل بالدافع يبدو وكأن النذير تحقق. وعلى ذلك لن تطلق زوجتك لأنك أضعت الدبلة، ولكنك أضعت الدبلة لرغبتك فى الطلاق.

الكاسورة :

إذا استعصى هذا العنوان على القارئ، فليذكر المثل العامى القائل: «لولا الكاسورة ما كانت الفاخورة». فالكاسورة هى الأوانى أو الأوعية المكسورة. ويتطير كثير من الناس من حوادث كسر الأوانى. ويتشاءمون من القلة المكسورة أو المرآة المكسورة. فما قول التحليل النفسى فى الكاسورة؟

لا يعتبر فرويد كسر الأوانى سهوًا، مصادفة. ولا هى – فى رأيه – غير مقصودة، بل إنها أفعال عرضية لها دوافع لا شعورية. فالحوادث التى تكسر فيها الأكواب والأطباق، والتى يظن أنها حدثت سهوًا، إنما هى حوادث موجهة، ولها دوافع لا شعورية، ويرمى كل حادث منها إلى غرض. وتتفاوت هذه الدوافع وتلك الأغراض من حالة إلى أخرى. وتكثر حوادث كسر الأوانى والأكواب فى المنزل فى فترات ومناسبات خاصة يسهل على من يتأملها أن يجد لها فى الحقيقة دوافع وأسبابًا. فلابد أن تكون هناك علاقة بين كثرة كسر الأطباق والأكواب من يد خادم صغيرة، وإساءة معاملتها. والسيدة التى تتسم بالاتزان من الناحية الانفعالية قلما تكسر شيئًا.

ويستدل فرويد من الأمثلة التالية على أن كسر الأوانى يحدث فى ظروف وملابسات خاصة، ويحقق أغراضًا معينة:

قد يكون كسر غطاء المحبرة الزجاجية القديمة سهوًا مثلا نتيجة للرغبة فى الحصول على محبرة أخرى جديدة. وقد يتلف شخص سهوًا أو يفقد الأشياء أو الهدايا التى سئم منها، ويريد عذرًا يبرر به حصوله على غيرها. فإذا كسر الطفل قلمه الحبر أو ساعته أو أضاعها

قبيل عيد ميلاده مباشرة، فهل يمكن اعتبار ذلك محض مصادفة؟ أم حدث ذلك لأنه يتوقع إهداءه بهذه المناسبة هدايا جديدة بدلا مما أتلف أو فقد.

وقد يكون الغرض من كسر الأشياء الثمينة التضحية والفداء والشكر للقدر الذى منع أو أبعد بلايا أخرى أكثر جسامة. فقد يحمل كسر تمثال ثمين سهوًا معنى الفداء والتضحية لنجاة قريبة عزيزة من موت محقق لولا لطف القضاء. وبذلك يبدو كسر التمثال الثمين عفوًا بمثابة الشكر للقدر على إنقاذ حياة هذه القريبة العزيزة. ويؤيد هذا التفسير ما يقال فى الأمثال العامية على أثر كسر الأوانى سهوًا: «خدت الشر وراحت».

وقد يكسر الشخص أو يفقد الأشياء أو الهدايا التى أعطاها إياه شخص تخاصم أو تشاجر معه، ولم يعد يرغب فى رؤية أى شىء يذكره به.

وقد يكون الغرض من كسر آلة أو جهاز سهوًا، الرغبة فى الاستراحة. فقد يكسر العامل سهوًا الآلة المكلف بإدارتها، ليحصل على فترة راحة، حتى ولو بدا كسر الآلة خطأ غير مقصود.

وفى الكاسورة تبدو الحالات الخفيفة من الهفوات العقلية، وهناك حالات متطرفة، كحوادث تصادم السيارات أو انحرافها أو السقوط أثناء رياضة تسلق الجبال، والتى تبدو وكأنها قضاء وقدر مع أنها أحيانًا لا تكون محض مصادفة بل محتمة وأقرب إلى عقاب الذات أو الانتحار.

ومجمل القول أن حوادث كسر الأوانى والأوعية التى تحدث عفوًا، والتى تبعث على التطير، لها دوافع لا شعورية، وتبدو وكأنها محتمة.

وتختلف الحتمية للحالة النفسية من حادث إلى آخر بحسب الظروف السابقة لحدوثه، وما يحيط بكل حادث من ملابسات.

وإذا أمكننا القول بأن جميع رموز التطير وعلاماته إنما هى محض خرافات، فإننا لا نستطيع أن نقول فى الأفعال العرضية كالعثرة وضياع الدبلة والكاسورة التى تحدث سهوًا وبدون قصد، إنها خرافات. فالتطير من هذه الحركات له ما يبرره، لأنها حركات ذات مغزى ولها دوافع لا شعورية. وليس بمستغرب أن يؤدى استمرار وجود هذه الدوافع إلى تحقيق المتوقع منها. وقد يسهم المتطير بنفسه لا شعوريا فى تحقيقها.

تفسير فرويد للتطير:

يعرف فرويد الشخص المتطير بأنه من يتخذ من الأحداث الخارجية علامات يضفى عليها مغزى ومعنى، ويتخذ منها بشائر خير يتفاءل بها أو نذر سوء يتشاءم منها - كعادة العرب فى زجر الطير، وكالنذر التى يرويها لنا التاريخ. ويرى فرويد أنه طالما لا توجد علاقة بين الشخص المتطير والحادث الخارجى (النذير)، تكون المسألة مصادفة لا أكثر. ولكن الحالة تختلف تمامًا عندما تصدر عن الشخص أفعال عشوائية أو أخطاء غير مقصودة (مثل العثرة وضياع الدبلة). وهذه لا يعتبرها فرويد مصادفة بل إن لها دلالة، إنها أفعال الدافع إليها لا شعورى تحتاج إلى تفسير.

وعلى ذلك يختلف فرويد عن الشخص المتطير فيما يأتى: إنه لا يؤمن بأن أى حادث خارجى لا يشترك فيه ذهنه يعلمه أى شىء عما يخبئه له القدر فى المستقبل. ولكنه يعتقد أن أى حادث عشوائى

أو خطأ غير مقصود صدر عنه لابد أن يحتوى على شىء مخبأ فى نفسه ينتمى إلى حياته العقلية وحدها.

فهو يعتبر حقيقة المصادفة فى الأشياء الخارجية — ولكنه لا يعتبرها فى الأشياء الداخلية (النفسية). أما مع الشخص المتطير فالحالة على عكس ذلك: إنه لا يعلم شيئًا عن دوافع الحوادث العشوائية ومع هذا يميل إلى أن يضفى على حوادث المصادفة الخارجية معانى، ويرى فى حوادث المصادفة المحضة الخارجية وسائل للتعبير عن أشياء مخبأة خارجة عن ذاته (أى غيبية). فيوجد حينئذ وجهان للخلاف بين فرويد والشخص المتطير:

أولا: المتطير يفسر الدوافع على أنه من الخارج، بينما ينظر فرويد إلى الدافع فى نفسه.

ثانيًا: المتطير يفسر الحادث بالمصادفة accident بأنه واقعة event بينما يرجعه فرويد إلى فكرة. وما يعتبره المتطير مخفيًا يقابله عند فرويد اللاشعور.

ونظرًا لأن الشخص المتطير لا يعرف شيئًا عن دوافع الأفعال العشوائية والأخطاء غير المقصودة التى تصدر عنه، ونظرًا لضرورة تعرفه هذه الدوافع، فإنه يضطر إلى التخلص منها بأن ينسبها إلى العالم الخارجى. مع أن الدافع إلى هذه الأفعال لا شعورى وأنها نتيجة لوجود نزعات وميول ورغبات كبتت فى اللاشعور لأنها لا تتفق مع آداب المجتمع وتقاليده ولكنها لم تخمد ولم تفقد القدرة على الظهور بل ظلت

حية تتحين الفرصة للإفلات من الرقيب والإفصاح عن نفسها فى الأعمال العشوائية والسهو والخطأ.

ويذكر فرويد أن التطير كان له ما يبرره فى العصور القديمة وكان متفقًا ومتمشيًا مع الحالة العقلية التى كانت سائدة وقتئذ. أما الآن فلا محل له فى المجتمع الحديث بعد كل هذا التقدم فى العلوم. فسلوك الرجل الرومانى الذى رأى سربًا من الطير فاتخذه نذير سوء وتشاءم منه، له ما يبرره نسبيًا لأنه يتفق مع الحالة العقلية التى كانت سائدة وقتئذ. ولكن لو أن هذا الرومانى عدل عن مشروع لأن قدمه تعثرت سهوًا فى عتبة الباب، فإنه يكون أفضل منا نحن التحليليين، لأن زلة قدمه تدل على التردد والشك أو على إقباله على عمل وهو كاره له.

ومن دراسة فرويد للدوافع النفسية المختفية بواسطة التحليل النفسى، اتضحت له الدوافع اللاشعورية التى تظهر فى التطير: «إن التطير منشؤه الدوافع العدائية القاسية المكبوتة، فالجزء الأكبر من التطير ينم عن الخوف من شر مستطير. فمن يتمنَّ الشر لغيره، ولكنه يضطر إلى كبت هذه النزعة الشريرة فى اللاشعور نتيجة لحسن تربيته، فإنه يتوقع العقاب على هذا الشر المكبوت، عقابًا يأتيه على شكل شر ونحس يتهدده من الخارج»

وفى هذا التفسير يتناول فرويد ناحية التشاؤم. إلا أن للتطير - كما هو معروف - ناحيتين: علامات للسعد، وعلامات للنحس. ويتفاءل المتطير بالأولى ويتشاءم من الثانية. يتبقى إذًا ناحية التفاؤل، أى عندما

يتخذ الشخص المتطير بشائر للخير يتفاءل بها. فهل يمكن – قياسًا على تفسير فرويد – أن نقول إن التفاؤل شيمة من يتمنى الخير للغير، وأن من أحب لغيره ما يحب لنفسه توقع أن يرتد إليه الخير فيستبشر به ويتفاءل له ؟

علاقة التطير بالشخصية :

إذا صح ذلك، فإنه قد يكون من الممكن إضافة التطير إلى الصفات المزاجية والخلقية التي تميز الشخصية. فلو أمكن الوصول إلى طريقة لقياس التطير باختبار أو استبيان، يضم إلى اختبارات الصفات المزاجية والخلقية، لأمكن إضافة التشاؤم والتفاؤل إلى نماذج الحالات النفسية التي تميز الشخصية التي قام بتصنيفها يونج، كأن يقال عن المنطوى أميل إلى التشاؤم، والمنبسط أميل إلى التفاؤل. وكما أنه لا يمكن القول بذلك ما لم نصل إلى طريقة لقياس التطير، فكذلك تقع البينة على من يدعى عكس ذلك.

فأمامنا إذن حدث خارجي هو النذير أو البشير من ناحية، واستعداد لتفسيره بحسب الصفات المزاجية والخلقية ونوع الشخصية من ناحية أخرى (فالبعض يتفاءل من رقم ١٣،-والبعض الآخر يتشاءم منه – ويتفاءل البعض من القط الأسود، ويتشاءم البعض الآخر منه – كما لا يخفى أن كثيرين لا يبالون ولا يكترثون ولا يقيمون لهذه العلامات وزنًا). يضاف إلى ذلك أن للمهنة والبيئة والسن دخلا كبيرًا في القابلية للتطير. وهذه كلها بعض الاعتبارات التي ينبغي أن تؤخذ في الحسبان عند عمل الاختبار المشار إليه.

وإذا وضعنا مستوى تقديريًا من ١ - ٥ لسمتى التفاؤل والتشاؤم كما تبدوان فى التطير، بحيث تمثل العاديين، وإذا افترضنا أن توزيع مجموعة من الناس على هذا المستوى، سينتج لنا «منحنى تكراريًا معتدلا» أو منحنى يشبه الجرس، فينتظر أن تكون غالبية الناس فى الوسط، ويقل التوزيع كلما اتجهنا صوب الطرفين. كما ينتظر أن تكون حالات التشاؤم المفرط، وحالات الإغراق فى التفاؤل قليلة، وعلى طرفى نقيض في مستوى التقدير. فهل تكون هذه الحالات المتطرفة على علاقة بالعصاب (أى بالمرض النفسى)؟

من المعروف أن العصاب الذى يكون المنطوى معرضًا له بصفة خاصة هو العصاب القهرى، وأن الهستيريا هى العصاب الأكثر شيوعًا بين من ينتمون إلى النموذج المنبسط. ولذلك نشير إلى احتمال إيجاد علاقة بين: التشاؤم والانطواء والعصاب القهرى من ناحية، والتفاؤل والانبساط والهستيريا من ناحية أخرى.

التطير من الأحلام:

من أهم ما يستوقف نظر معظم الناس فى أحلامهم ويثير اهتمامهم بها هو قيمتها فى التنبؤ بالمستقبل. وإذا سألوا عن تفسيرها، فإنما يسألون عما يصح لهم أن يتوقعوه وينتظروه، لأنهم يتطلعون إلى التماس المعانى المخبوءة التى تنبئ عنها أحلامهم.

والتطير من الأحلام والاعتقاد فى قيمتها التنبئية اعتقاد قديم ظل سائدًا بين الناس عصورًا طويلة. وكانت للقدماء أحلام لها دلالات

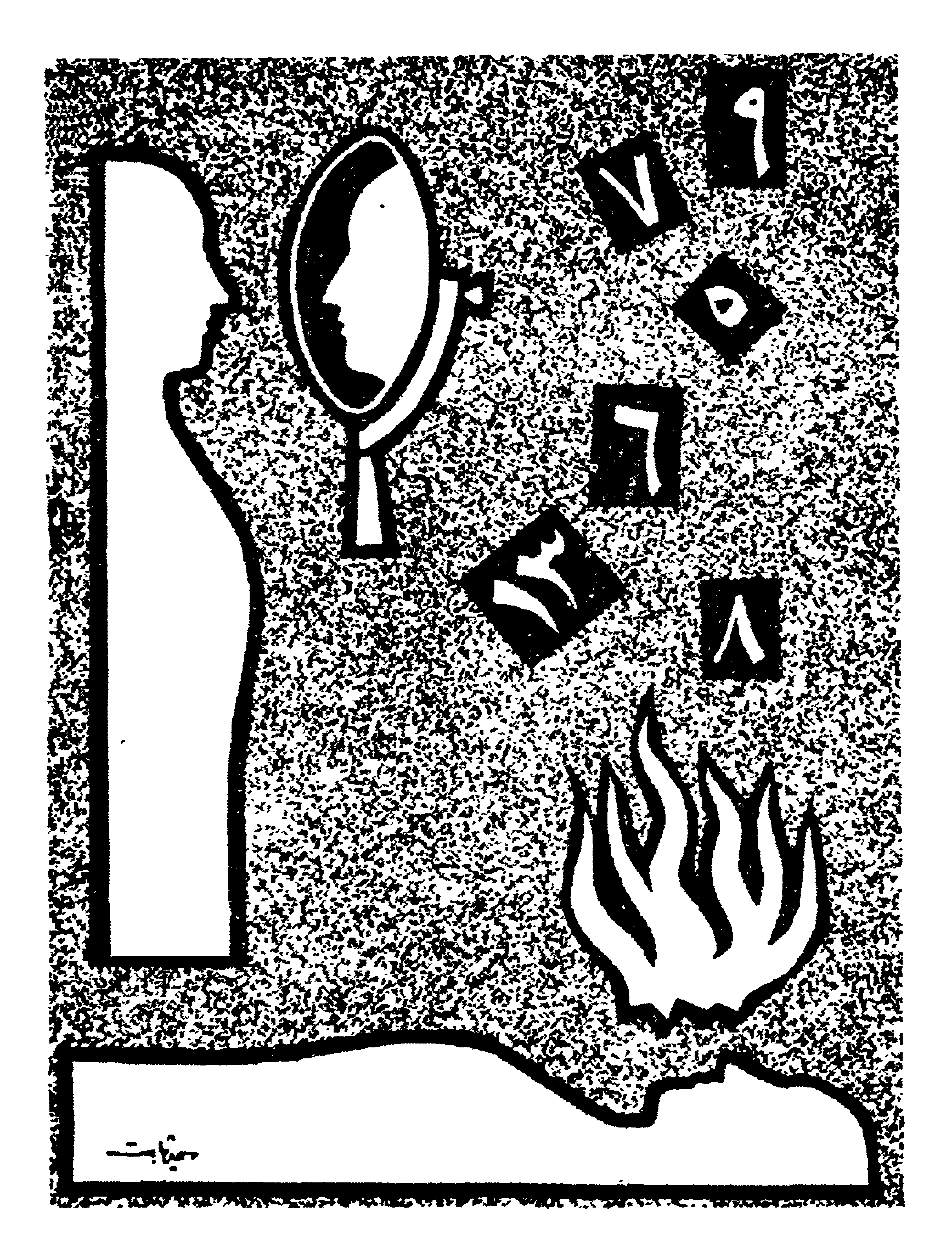
متعارف عليهـا، ومنها ما يستبشرون به ويتفاءلون، ومنها مـا يتشـاءمون منه ويتطيرون. ومن هذه الأحـلام «الأحـلام النموذجيـة» وهـى الأحـلام المشـهورة التـى يحلـم بـها كثـير مـن النـاس بطريقـة متشـابهة، وتتكـرر رموزها، وتحمل دائمًا نفس المعنى، وتؤول فى كـل مكـان تقريبًـا بدلالـة واحدة لا تتغير.

وقد تناولت بالتحليل المفصل مجموعة من هذه الأحلام المشـهورة ذات الـدلالات الشـعبية القديمـة فـى كتـاب بعنـوان: «الأحـلام النموذجيـة ودلالتها التنبئية» نشرته دار المعارف فى عام ١٩٦٠ ضمن مكتبة الثقافة الشعبية. ويدرس هـذا الكتـاب مجموعـة كبـيرة مـن الأحـلام النموذجيـة وأهمها: حلم العرى — حلم الحفاء — حلم الطيران — حلـم الامتحـان — حلم النظر فى المرآة – الحلـم بـالحرامى – الحلـم بالنـار الموقـدة – أكـل الكعك، وأكل التين فى الأحلام – الارتحال والسفر فى الأحلام – فقـدان الأسنان فى الأحلام – قص الشعر فى الأحلام – العثرة وكسر الخاتم فـى الأحلام – الصعود والسقوط فى الأحلام – الميلاد والمـوت فـى الأحـلام – وفاة الأهل فى الأحلام – المشـى أثنـاء النـوم – رؤى يوسـف وفرعـون – دلالة الأرقام فى الأحلام – دلالة الألوان فى الأحلام».

وقد نسب القدماء لهذه الأحلام دلالات تنبئية، منـها دلالات ميمونـة تبعث على التفاؤل، ومنها دلالات مشئومة تدعو إلى التطير، ومثال ذلك: حلم العرى، ودلالته الافتضاح — حلم الحفاء، ودلالتـه العـوز والفاقـة — حلم النظر فى المرآة، ودلالته المرض — الحلم بالنار الموقدة، ودلالتـه نـار جهـنم وعـذاب الآخـرة؛ وأكـل الكعـك فى الحلم، ضيق؛ وأكل التين،

ندامة وهم وغم؛ والارتحال أو السفر فى الحلم دلالته الموت؛ وفقدان السن فى الحلم دلالته وفاة أحد الأقارب؛ وقص الشعر فى الحلم دلالته الوهن وفقدان القوة؛ والضحك فى الحلم بكاء وحزن؛ والبكاء فى الحلم، فرح وسرور؛ والصعود فى الحلم رفعة؛ والسقوط فى الحلم يدل على تغير الأمر وتعذر المراد. . . وهكذا. وتعتبر هذه الأحلام المشهورة ودلالتها الشعبية القديمة الواسعة الانتشار جزءًا من التراث الميثولوجى الذى توارثناه على مر الأجيال، لأن الدلالات القديمة لهذه الأحلام استرشدت بمدلولات الرموز فى الأديان والأساطير والطقوس والفولكلور القديم.

وقد وازنت فى هذا الكتاب بين التفسيرات الشعبية القديمة لهذه الأحلام ممثلة فى تفسير محمد بن سيرين الذى عاش فى نهاية القرن الأول الهجرى ومات سنة ١٠٨ هـ (٧٢٨ م)، وتفسيرات المحدثين من أقطاب التحليل النفسى. وقد هالنى ما تنطوى عليه تفسيرات ابن سيرين من فراسة وبصيرة نافذة. فالدلالات القديمة التى يقول بها والتى تشير إلى المستقبل غالبا ما تكون هى ذاتها الدلالات اللاشعورية التى يقول بها رجال التحليل النفسى. وقد أخذت الدلالات التنبئية القديمة للأحلام من كتاب ابن سيرين «منتخب الكلام فى تفسير الأحلام» الذى طبع بدار الطباعة الخديوية ببولاق سنة ١٢٨٤ هـ.


٩
٧
٥
٦
٨

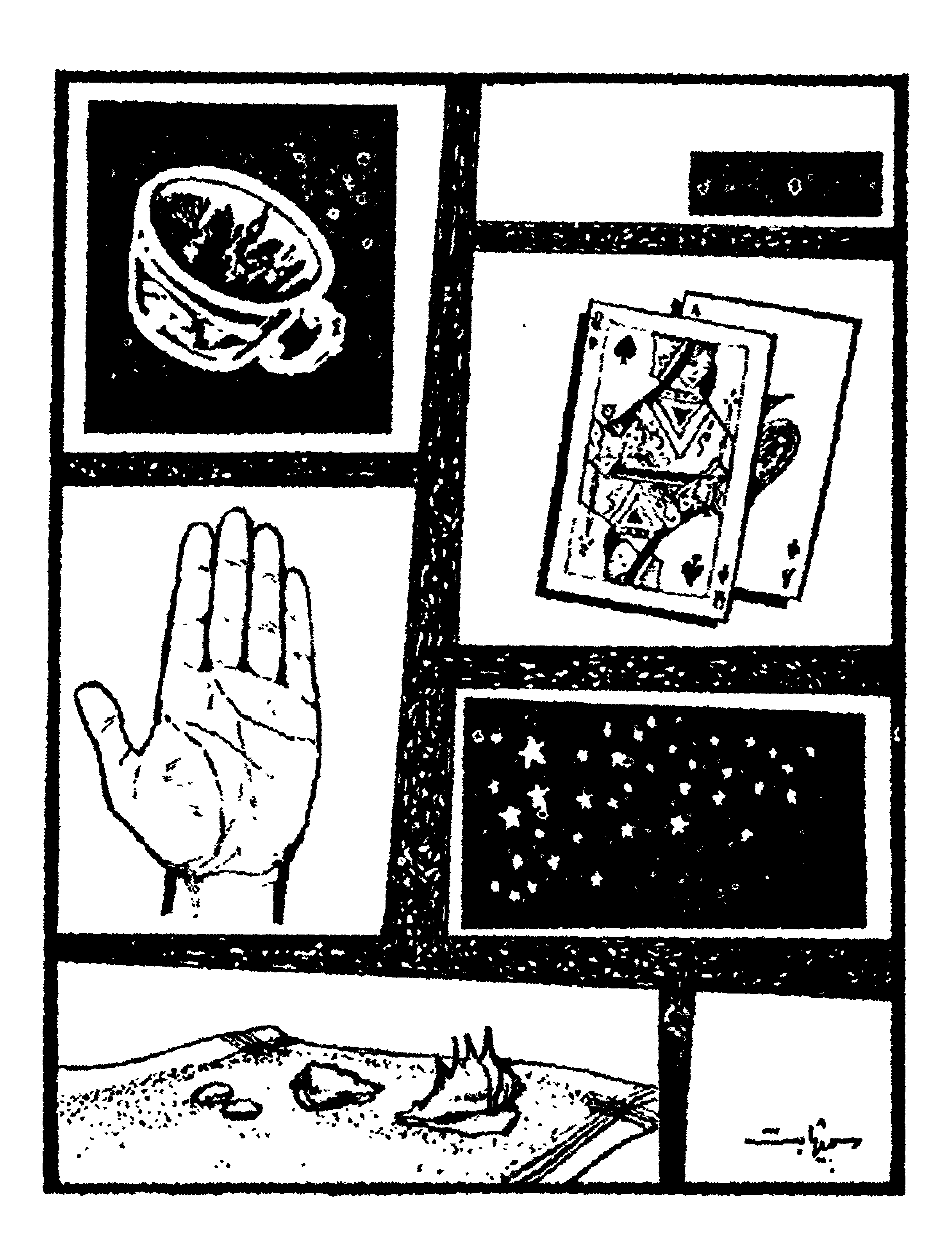
الفصل الرابع

العرافة واستطلاع الغيب

من مظاهر التطير الالتجاء إلى معرفة الطالع واستشارة العرافين، والاعتقاد فى إمكان قراءة الفكر والضمير. وتكشف هذه الاعتقادات الشائعة عن رغبة متأصلة فى نفوس كثير من الناس لكشف حجب الغيب واستطلاع ما يخبئه لهم القدر فى المستقبل.

ويختلف حظ الناس في مدى اقتناعهم بإمكان قراءة الطالع، فيأخذ بعض الناس قول العراف مأخذ الجد، ويستسخف البعض الآخر تنبؤاته. كما يختلف الناس فى قبول طرق العرافة المختلفة، فمنهم من يصدق فى إمكان معرفة الماضى أو الحاضر، ولكنه يشك فى إمكان التنبؤ بالمستقبل. ومنهم من يثق فى تنبؤات قارئ الكف أو الفلكي، ولكنه ينكر طريقة الضاربة للرمل والهامسة في الودع. ومنهم من يبدأ يومه باستطلاع بخته في جريدة الصباح، ويواظب على ذلك بإلحاح. ومهما جاءت الطوالع مغايرة للواقع، فهو يتهافت على أى شيء يتفاءل به، عسى أن يصدق.

وفى كل مجتمع من المجتمعات القديمة والحديثة والبدائية والراقية، فئة من الناس يدعون لأنفسهم قدرات خاصة، ويعرفون بأسماء مختلفة منها: العرافون والراءون والدجالون والمجذوبون والوسطاء الروحيون والوسطاء



المنومون تنويمًا مغناطيسيًّا، والكهان والفقراء والمنجمون والمتصوفة. . . ومن إليهم. ويختلف حظهم. من هذه القدرات التنبئية أو الملكات النفسية، فمنهم الأدعياء والمحتالون، ومنهم من بلغت عنده هذه القدرة درجة خارقة للعادة، تبعث على الدهشة والإعجاب. وفيما بين أولئك وهؤلاء تتفاوت كفاية العرافين بحسب ما أوتوا من قدرة أو فراسة.

ويروى لنا التاريخ أمثلة كثيرة لعرافين وكهان، كانت لهم مكانة مرموقة فى بلاط الملوك القدماء، شرقيين وغربيين. وكان العرافون طوال العصور القديمة والوسطى موضع ثقة الملوك والحكام، يعتمدون عليهم ويأخذون بمشورتهم قبل الإقدام على أمر هام، مثل الشروع فى غزو، أو إبرام صلح، وكان توقيت هذه الأمور رهن بظهور العلامات المبشرة بالنجاح للكاهن أو العراف.

والظاهرات الغيبية أو الخارقة للعادة قديمة معهودة فى جميع الأجيال والعصور. والثابت عند المعنيين بتاريخ هذه الظاهرات أنها عرفت فى الشرق القديم عند قدماء المصريين والآشوريين والكلدانيين، ثم امتزجت بما عرف منها عند اليونانيين والرومان. وانتقل هذا التراث الهيلينى الذى جمع بين العناصر الشرقية والأفكار اليونانية إلى مفكرى الإسلام وأثر فى الكثيرين منهم، ولا حاجة بنا إلى تتبع تاريخ هذه الظاهرات، أو ذكر أمثلة لها فى عصور التاريخ المختلفة. وحسبنا أن نشير على

القارئ بالرجوع إلى الدراسة التاريخية الشيقة التى صدرت ضمن هذه المجموعة[1].

وميدان هذه الظاهرات الغيبية ميدان رحب فسيح، ويتعذر أن نلم به فى مثال هذا الحيز المحدود، ولذلك لابد لنا من تحديد مجال البحث بحيث يقتصر على علاقة العرافة واستطلاع الغيب بالتطير. وسنعنى بصفة خاصة بالنظريات التى قيلت فى تفسير هذه الظاهرات الغيبية، ثم نحاول تطبيقها على طرق العرافة الحديثة المنتشرة فى مجتمعنا فى الوقت الحاضر، التى ينم الاعتقاد فيها عن التطير.

ويجب ألا يتوقع منا القارئ أن نقطع برأى فى مدى صحة هذه الظاهرات وثبوتها. كما أننا لا نستطيع أن نكذبها أو ننفى حدوثها بدعوى أنها خرافات. غاية ما يمكننا القول هو أن هذه الظاهرات لم تدرس بعد دراسة كافية، ولم يصل العلماء بشأنها إلى يقين.

سنستخدم لفظ العراف أو قارئ الطالع لينصرف إلى أى واحد من المشتغلين بالتنبؤ بالغيب، سواء استخدم التنجيم أو التنويم المغناطيسى أو الوساطة الروحية أو تحضير الجان أو الأرواح. وهذه الطرق وأشباهها بينها تداخل كبير ويتعذر الفصل بينها. وهى تقوم على أساس افتراض وجود قدرة معينة على الكشف والتلقى والإيحاء وما شابهها من الصلات النفسية عن طريق غير طريق الحواس المعروفة. وأساس

---

(١) انظر: «التنبؤ بالغيب – قديمًا وحديثًا»، تأليف الأستاذ أحمد الشنتناوى، اقرأ ٢٠١.

هذه القدرة استعداد خاص عند بعض الأفـراد، يمكـن تنميتـه بالمجـاهدة والرياضة. وتنطوى هذه القـدرة علـى ظـاهرتين أساسيتين يـدور حولهمـا بحث العلماء فى الوقت الحاضر، هما التخاطر والاستشفاف.

والتخاطر Telepathy هو انتقال الأفكار والتأثيرات المختلفة مـن ذهـن إلى آخر، دون الاستعانة بمسالك الحس المعروفة.

أمـا الاستشـفاف Clairvoyance فـهو الكشـف، ويحتـاج إلى جـلاء بصرى يمكن صاحبه من إدراك أشياء أو حوادث دون أن يراها، ويصفـها وهى محجوبة عنه، سواء أكانت قريبة أم بعيدة.

وقد ذهب العلماء فى تعليل هذه الظاهرات الغيبية - التى تنطوى على التخاطر والاستشفاف - مذاهب شتى. وفيما يلـى نتنـاول أهـم النظريـات التى قيلت فى تفسير هذه الظاهرات.

١ - الحاسة السادسة :

صاحب هذه النظريـة[1] هـو جوزيـف سـينيل. وهـو ينسـب القـدرات الغيبية أو الصـلات النفسـية التـى تتـم عـن طريـق غـير طريـق الحـواس المعروفة، إلى الجسم الصنوبرى أسفل المخ. ويقرر أن الأجسام المادية يمكن أن تحـس مـن بعيـد لأنـها تبعـث حولهـا ذبذبـات متلاحقـة تسـرى إلى مسافات بعيدة. وقد تخترق الحوائل كما تفعـل الأشـعة السـينية، ويعلـل

---

(١) انظر كتاب «الحاسة السادسة» تأليف جوزيف سـينيل، ترجمـة الأسـتاذين محمد بدران، وأحمد محمد عبد الخالق، مكتبة الآداب ١٩٤٥.

غرائز الأحياء التى تهتدى إلى أمثالها أو إلى الأماكن المحجوبة عنها على المسافات الطويلة بحاسة تتلقى هذه الذبذبات وتتبعها إلى مصادرها. أما الإنسان وسائر الحيوانات الفقارية فهى تعتمد على الجسم الصنوبرى فى الدماغ للشعور بالأشياء التى لا تنتقل إليها بحاسة النظر أو الشم أو السمع أو الملامسة. ويستبعد الأستاذ سينيل أن يخلق هذا الجسم الصنوبرى عطلا بغير عمل فى جميع الأحياء الفقارية، لأن ملاحظاته الدقيقة عن موضع هذا الجسم فى الدماغ، واختلاف حجمه بين الأحياء قد دلته على تفسير عمله حسب اختلاف موضعه وحجمه. فهو فى الأنثى أكبر منه فى الذكر، وفى الهمجى أكبر منه فى المتحضر، وفى الطفل أكبر منه فى الرجل، وفى الحيوان أكبر منه فى الإنسان. وهو قريب إلى فتحات الرأس فى بعض الأحياء التى تعول على التحسس البعيد ولا تستغنى عنه بالقياس العقلى أو بالوسائل الصناعية كما يفعل الإنسان. وكلما انصرف الحى عن استخدام هذا الجسم الصنوبرى ضمر، واقترن ضموره بضعف الشعور بالذبذبات والرسائل المنتقلة من المسافات القصيرة.

قال الأستاذ سينيل: «أما الكشف كما أعرفه أنا - وكما ينبغى أن يعرف - فهو إدراك الأشعة المغنطيسية أو قل الموجات المغنطيسية المنبعثة من الأجسام المحيطة بنا والتى من شأنها أن تخرق كل جسم يعترضها بدون حاجة إلى الاستعانة بأى عضو من أعضاء الحس المعروفة. والكاشف فى رأيى هو كل من يستطيع

أن يضبط جانبًا من مخه ويعده لكي يستقبل الإشعاع الصادر عن الحاجز، يعني من شيء ما - بعد استبعاده كل أشعة أخرى، شأنه في ذلك شأن الجهاز اللاسلكي الذي يضبط لكي يستقبل موجة منبعثة من محطة ما - مع استبعاد كل موجة أخرى سواها».

وتتصل ظاهرتا الاستشفاف والتخاطر إحداهما بالأخرى اتصالا وثيقًا. وكثيرًا ما يظهر أثرهما معًا، ولكنهما في جوهرهما ظاهرتان منفصلتان إحداهما عن الأخرى. والاستشفاف هو نوع من الإبصار، يصل إلى المراكز الحسية البصرية بطريق آخر غير طريق العينين، أما التخاطر فهو انتقال الذبذبات الأثيرية الصادرة من عقل إلى آخر، وذلك أن التفكير في شيء معين يولد ذبذبات ذهنية، يستطيع أن يلتقطها من أوتي القدرة على استقبالها، فتنتقل الأفكار. وهكذا ينسب سينيل إلى الجسم الصنوبري القدرة على الاستشفاف والتخاطر. ويعتمد في تفسيره لهاتين الظاهرتين على التعليل المادي أو الجسدي المحسوس.

والاعتراض الذي يمكن أن يوجه إلى هذه النظرية هو أن صاحبها لم يقم الدليل القاطع على أن الجسم الصنوبري هو الذي يقوم فعلا بتلك الوظيفة التي يعزوها إليه. كل ما هنالك أن هذا الجزء من أجزاء المخ لا يعرف رجال الطب له وظيفة ثابتة. وهو يفترض أن وظيفته هي تلقي تلك الموجات أو الإشعاعات المغناطيسية. وهذا الفرض لم تثبت صحته.

٢ - التنبؤ بالغيب عند الصوفية[1] :

يقسم مفكرو الإسلام أساليب التنبؤ إلى نوعين: طبيعية وصناعية. وتشمل الأساليب الطبيعية حالات التنبؤ إبان الجذب في اليقظة، والرؤيا الصادقة أثناء النوم. أما الأساليب الصناعية فتجيء صناعة واكتسابًا، وتشمل النظر في الأجسام اللامعة، والزجر والفأل، والتنجيم والسحر، وتأويل الخوارق.

ومرد القدرة على إدراك الغيب — في نظر الصوفية — إلى ذهاب الحس وزوال حجابه سواء في اليقظة أم في المنام. وقد يتوافر هذا لبعض المجاذيب والمرضى والمعتوهين من المريدين ومن إليهم ممن يتهيأ لهم انصراف المزاج عن موارد الحس، وتجرد النفس من علائق البدن. فليس يمنع النفس عن تعقل المدارك الغيبية إلا انغماسها في البدن والحواس وشواغلها. وعندما يرفع حجاب الحس المرسل بين القلب واللوح المحفوظ، تكشف للنفس مكنونات الغيب، ويتجلى لها ما هو مكتوب في اللوح المحفوظ.

ويصور ابن سينا هذا الاتجاه الصوفي في تفسير الكشف وتعليل الرؤيا بقوله: «إن الأحداث منقوشة في لوح محفوظ في العالم العلوى. وفي وسع بعض الناس الاتصال به عن طريق مخيلتهم القوية، فيقع

---

(١) انظر كتاب : «التنبؤ بالغيب عند مفكرى الإسلام» تأليف الدكتور توفيق الطويل — دار إحياء الكتب العربية، ١٩٤٥.

لهم هذا أثناء نومهم، فإن أفرطت مخيلتهم فى القوة ظفروا بالاتصال أيقاظًا، وأولئك هم الواصلون من الأولياء»، «. . . واللوح لمحفوظ مرآة نقشت عليها المقادير بغير حروف، ولو ظهرت تجاهها مرآة أخرى، لانكشفت فيها صور الأولى، إلا إذا قام بينهما حجاب. وليست المرآة الثانية إلا القلب، والحجاب هو الشهوات والحواس، ويتجلى هذا في اليقظة. أما النوم ففيه يرتفع الحجاب ويزول، وبذلك تظهر فى مرآة القلب صور اللوح المحفوظ، وتنكشف آفاق العالم المجهول، فإذا سلمنا بأن النفس تكون عند النوم فى أعظم حالاتها، زال العجب من وقوع العلم بالغيب إبانه».

وهذا التصور الصوفى لكيفية العلم بالغيب فى الحلم، على عكس نظرية التحليل النفسى للأحلام التى ترى أن الأحلام لا تهبط من عل، وإنما دوافعها لا شعورية، لا تسقط على النفس من الخارج، وإنما تنبعث من الداخل، لا تشير إلى المستقبل، وإنما جذورها في الماضي.

٣ – رأى التحليل النفسى :

مرت على فرويد، خلال ممارسته الطويلة للتحليل النفسى، أمثلة كثيرة للتخاطر أو انتقال الأفكار، جعلته يقتنع بإمكان حدوث هذه الظاهرة. وقد أفرد فصلا ممتعًا عن «الأحلام والظواهر الغيبية» فى كتاب: «محاضرات تمهيدية جديدة فى التحليل النفسى»، الذى ترجم إلى اللغة العربية ونشر ضمن مجموعة الألف كتاب. وحاول فرويد

– فى هذا الفصل – أن يربط بين التخاطر وطريقته فى تفسير الأحلام والتحليل النفسى، فقال بأن دوافع الأحلام هى الرغبات أو المخاوف اللاشعورية، وكذلك يقرأ العراف أو قارئ الطالع الرغبات أو المخاوف اللاشعورية لمن يستشيرونه. وبذلك يحق للمحلل النفسى أن يحلل النبوءات التى يذكرها العراف بنفس الطريقة التى يحلل بها الأحلام. وروى فرويد أمثلة كثيرة لحالات انتقال الأفكار أو التخاطر، نذكر منها بإيجاز المثالين التاليين:

المثال الأول: لسيدة فى مقتبل العمر، متزوجة ولم تنجب أطفالا. خلعت دبلة الزواج قبل أن تقصد إلى عراف شهير ليقرأ لها الطالع عن طريق بصمات الكف فى الرماد. أخبرها العراف بأشياء كثيرة. وكان من أهم ما قاله لها، إنها ستتزوج وترزق بطفلين. ولم تصدق نبوءة العراف، بسبب عقم زوجها. ولكن العراف استطاع أن يقرأ الرغبة اللاشعورية التى كانت تنطوى على جوانحها، وهى الرغبة فى الأطفال. وكانت هذه الرغبة هى الشغل الشاغل لها وقت استشارة العراف. وكانت تنغص عليها حياتها، وتعالج بالتحليل النفسى من جرائها.

المثال الثانى: لطالب طب فى السنة النهائية، يعالجه فرويد من اضطرابات نفسية منشؤها تعلقه العصابى بأخته، وكراهيته اللاشعورية لزوجها. سمع هذا الطالب عن عرافة شهيرة تشتغل بالتنجيم. وكانت طريقتها بسيطة، فلم تكن تطلب سوى معرفة تاريخ ميلاد الشخص، ثم

تستشير بعض كتب التنجيم، وتقوم بعمليات حسابية معقدة، وتخبر بعد ذلك بطالعه. عول الطالب على أن يستشيرها، لا عن نفسه بل عن زوج أخته. فأعطاها تاريخ ميلاد زوج الأخت. وبعد أن حسبت النجم، تنبأت له قائلة: «إن هذا الشخص سيموت مسمومًا من أكلة محار فى الصيف القادم». ومضى الصيف، ولم تتحقق نبوءتها. روى هذا الطالب لفرويد أثناء جلسات التحليل، أن زوج أخته مغرم فعلا بتناول المحار، وأنه كاد يموت مسمومًا بسبب طبقه المفضل، منذ عامين، أى قبل استشارة العرافة. وواضح أن العرافة لم تخبر عن المستقبل، ولا عن الماضى، وإنما هى قرأت الرغبة اللاشعورية للطالب الذى يستشيرها. ولتوضيح ذلك نقول: نفرض أن هذا الطالب حلم بموت زوج أخته. إن تفسير هذا الحلم البسيط هو أنه يضمر كراهية لا شعورية نحو زوج أخته، عبرت عن نفسها فى الحلم بموته. وقد ينم هذا الحلم عن الرغبة فى مغنم ثانوى يعود على الحالم من وفاة زوج أخته. وكما أن هذه الرغبة يمكن أن تفصح عن نفسها فى الحلم، فكذلك يمكن للعرافة أن تقرأها وتخبر بها. وهذا يؤيد قول فرويد إن ما يحاول العراف أو قارئ الطالع قراءته هو الرغبات أو المخاوف اللاشعورية لمن يستشيرونه.

وإذا كان فرويد يدعونا إلى أن ننظر بعين الاعتبار إلى احتمال حدوث التخاطر أو انتقال الأفكار، فقد سبقه كثيرون من علماء النفس أيدوا صحة ثبوت هذه الظاهرة. ومن هؤلاء العالم النفسى الكبير وليم مكدوجل الذى قال: «إننى أعتقد أن التخاطر أو انتقال الأفكار وشيك جدًا أن

يتقرر بصفة نهائية فى عداد الحقائق المعترف بها علميًا». وكذلك يقول الدكتور أليكسيس كاريل فى كتابه : «الإنسان، ذلك المجهول»: إن وجود الاستشفاف والتخاطر أمر مفروغ منه.

* * *

وهكذا تلقى كل نظرية من هذه النظريات الثلاث على ظاهرات الإدراك الغيبى - كما يبدو فى التخاطر والاستشفاف - أضواء من زوايا مختلفة. ومع أن هذه النظريات بينها تفاوت كبير، إلا أنها مفعمة بالمعنى: فنظرية الحاسة السادسة التى تنادى بأن التخاطر والاستشفاف من وظائف الجسم الصنوبرى، تعتمد على التفسير المادى الطبيعى المحسوس. وعلى النقيض منها تمامًا التفسير الصوفى المجرد الذى يذهب إلى ما وراء الطبيعة، ويحلق بين الأفلاك فى آفاق العالم العلوى واللوح المحفوظ. أما التفسير النفسى، فيرد الإدراك الغيبى فى مختلف صوره إلى اللاشعور، ويرى أنه ينبع من باطن النفس، ولا يفد إليها من خارج.

وإذا انتقلنا من النظرية إلى التطبيق، فهل تساعدنا هذه الشروح والتفسيرات على فهم طرق العرافة المعاصرة التى لا تزال شائعة فى المجتمعات الحديثة، والتى يعتقد فيها المتطيرون ؟

يستعين العرافون فى الوقت الحاضر بوسائل معينة، مثل: الفنجان — الكف — ورق الكوتشينة — حساب النجم — الرمل والودع — المندل — إلى غير ذلك من الطرق المعروفة. ففى حالة قراءة الفنجان، تتشكل

بقايا البن فى الفنجان، ويمكن لمن يتأمل فيها أن يتعرف على رموز وعلامات، فتظهر سكة السفر، والنصرة، وشموع الفرح، وما إلى ذلك. وخطوط الكف، كل خط له معنى: خط للعمر، وخط للصحة، وخط للمال. . . وهكذا. هذه الخطوط تولد مع الشخص وتلازمه، وهى غير قابلة للتغيير، وهى أشبه بالبصمات، ولذلك يندر أن يتشابه كفان. وورق الكوتشينة، كل ورقة لها مغزى ودلالة معينة متعارف عليها، ولا يختلف فيها اثنان؛ أما المندل فهو طبق به زيت، يطيل العراف أو صبيه النظر فيه، ويخبر بما يتراءى له.

وإذا كان العرافون يسترشدون بهذه المعينات فى معرفة الطالع، فإن طرق العرافة — فى ظاهرها — طرق «موضوعية» تتوقف على ما يراه العراف أمامه ويقرؤه أو يفسر رموزه.

ويقابل هذه الوسائل «الموضوعية» ناحية ذاتية تتوقف على قدرة معينة، نسميها موهبة أو فراسة أو بصيرة أو ملكة نفسية أو حاسة سادسة. . وأحيانًا لا يدرى العراف نفسه كنهها. وغالبًا ما تقوم هذه القدرة علي استعداد طبيعى خاص، أو يكتسبها العراف عقب التعرض لصدمة أو لخبرات مؤلمة أو لمرض طويل. ويمكن تنمية هذه القدرة بالرياضة الروحية والزهد والصوم والمجاهدة.

ولا تتم الرؤية فى جميع الحالات، ولا مع جميع الأشخاص، ولا في كل الأوقات. فلا يقرأ العراف الأفكار أو يكشف الطوالع إلا وهو فى أحسن الحالات. وفى أوقات أخرى يغلق عليه، ويخيم الضباب، ويستعصى عليه الإدراك، وتتعذر الرؤية.

قد نفترض وجود نوع من الاتصال بين العراف ومن يستشيره، اتصال روحي أو نفسي أو غيبي أو لا شعوري، تنتقل بواسطته الأفكار أو الصور من عقل إلى عقل، كما يسرى التيار أو الموجات أو الذبذبات، دون الاستعانة بوسائل الحس المعروفة. وهو ما يعرف بالتخاطر (أو انتقال الأفكار) واستشفاف (أو الكشف).

ويشترط لحدوث هذا الاتصال، أن يكون العراف في حالة سلبية، يمتنع فيها عن التفكير، ويزيل حجاب الحس، ويستغرق فيما يشبه الاستبطان. هذه الحالة السلبية أو حالة التركيز والتجمع، تساعده على الخروج من مستوى الشعور إلى مستوى ما تحت الشعور، فيحدث التخاطر أو الاستشفاف.

والعراف الأصيل لا يحتاج في رفع حجاب الحس إلى عناء كبير. ومن العرافين من يكتفي بأن يشغل الحس بالبخور ثم يهيئه بالعزائم، ويخبر بعد ذلك بما يدرك. ومنهم من يحصر جميع مداركه الحسية ويركزها في نوع واحد منها، فيطيل التحديق في كرة كبيرة مصقولة من البلور، وهو ما يعرف بالتحديق البلوّرى، يستعين بها على بلوغ هذه الحالة السلبية. ويقال إن النظر في بقايا القهوة في الفنجان أو النظر في ورق الكوتشينة أو في الكف أو إلى النجوم أو إلى المندل، يساعد العراف على الوصول إلى هذه الحالة السلبية. وهو يديم النظر في هذه الأشياء حتى تغيب عن البصر، ويبدو بينه وبينها غشاوة، وتتشكل عليها صورة تتراءى له مجسمة، تحكى له بالمثال والإثارة ما ينبغي إدراكه. وهو يدرك هذه الصورة والأشكال إدراكًا نفسيًا

لا يتصل بالبصر. ويشبه هذا ما يحدث فى حالة التنويم المغنطيسى، إذ أن التحديق فى شىء لامع صغير الحجم وتركيز الفكر فيه يساعد على وصول الوسيط إلى حالة الغيبوبة. ويشبه هذا ما يحدث كذلك فى الأحلام. فالحلم وسيلته فى التعبير هى الصور. ونرى صور الحلم وحوادثه – بوضوح تام أحيانًا – بنوع من الإبصار، مع أن أداة البصر وهى العين تكون مغمضة أثناء النوم.

والسؤال الهام الذى يلح علينا ولا نعرف له جوابًا هو: من أين يستمد العراف الأفكار التى يقرؤها؟ المفروض أن مصدرها هو الشخص الذى يستشيره وما يجول بخاطره من مشكلات ومشاغل. فهل يقرأ العراف ما يراه مسطرًا أمامه فى ورق الكوتشينة أو فى خطوط الكف، أو فى العلامات والأشكال التى يتشكل بها البن فى الفنجان أو بحساب النجم، بطريقة «موضوعية» أم أنها موهبة ذاتية، فيقرأ الأفكار التى تنتقل إليه بطريقة مباشرة من الشخص الذى يستشيره، وفى هذه الحالة تكون الوسائل المعينة كالفنجان والكف والكوتشينة وسائل تساعده على التركيز والتجمع ورفع حجاب الحس، وتعينه على الوصول إلى مستوى ما تحت الشعور الذى يتم فيه انتقال الأفكار واستشفاف الحوادث؟ ويقول آخر: هل مهمة العراف أن يقرأ ما هو مسطر أمامه ويؤول الرموز والعلامات التى يراها، ويعطيها المعانى والدلالات المتعارف عليها، أم أنه يقرأ الأفكار التى تنتقل إليه بطريق مباشر من الشخص الذى يستشيره دون وساطة هذه الوسائل المعينة، أم أنه يؤلف هذه الأفكار تأليفًا ؟

وإذا كان مصدر الأفكار هو هذه الوسائل المعينة التى تتراءى للعراف فيها أشكال وعلامات معينة تختلف من شخص إلى آخر، فكيف يمكن تطويع هذه العلامات والرموز لتعبر عن أفكار ورغبات صاحبها؟ وكيف تنتقل هذه الأفكار والرغبات إلى هذه الوسائل الصماء؟ وهل تستطيع هذه الجمادات أن تتلقى تأثيرات من أفكار شخص ما وتنطبع فيها؟ وكيف تنتقل هذه التأثيرات والانطباعات بعد ذلك إلى عقل شخص آخر هو العراف ؟

مهما يكن من شيء، فكثيرًا ما تختلط طرق العرافة بالتدجيل والشعوذة. وإذا كانت هناك نواة من الحقيقة، فقد نسجت حولها ضروب من الأباطيل والخداع والشعوذة، جعلت من المتعذر الوصول إلى لب الحقيقة. وحتى إذا سلمنا جدلا بأن بعض العرافين لهم قدرة معينة على قراءة الأفكار، فليس معنى ذلك أنهم قادرون على شفاء الأمراض، أو علاج العقم، أو رد المطلقة إلى زوجها، أو غير ذلك من الادعاءات التى قد تأتى بنتيجة مع الأشخاص القابلين للتأثر بالإيحاء.

ومهما سمعنا من القصص العجيبة عن القدرة الخارقة لبعض قارئى الطالع، وكيف يخبرون عن الماضي أو الحاضر أو المستقبل، وكيف تصدق تنبؤاتهم، وجب ألا ننسى أن عامل الصدفة دائمًا موجود، وأن ما يقوله العراف غالبًا ما يتناول عموميات دون تحديد، وهذه العموميات تقبل التأويل، فمنها ما يبدو كأنه تحقق، ولكن أغلبها يخيب.

و (كذب المنجمون ولو صدقوا).

الفصل الخامس

التطير عند الجماعات البدائية

التطير ذائع الانتشار بين مختلف الشعوب، ويلعب دورًا كبيرًا فى حياة الجماعات البدائية المعاصرة. فعند هذه الجماعات فؤول ميمونة ونذر مشئومة؛ كأن يسمعوا هذا الطائر يصيح من جهة اليسار أو من جهة اليمين، أو يروا ذاك الحيوان يعبر الطريق فى أثناء المسير. وهم يتعرفون على الفأل فى طير الطائر وصياح الحيوان والاتجاه الذى يأتى منه أو يذهب إليه وهلم جرًا. ويدرك البدائى الدلالة السعيدة أو المنحوسة لهذا الفأل أو ذاك، ولا يبدأ فى عمل هام مثل إقامة كوخ أو بناء قارب أو الخروج فى رحلة صيد، قبل أن يرى الفؤول المبشرة بالنجاح. ويعدل عن غرضه إذا لم تظهر هذه الفؤول أو ظهرت فؤول سيئة. فإذا لمح فألا ميمونًا تحمس للعمل وأقبل عليه، وإذا لمح فألا مشئومًا تخلى عنه وزهد فيه.

وتحقق علامات الفأل التى تظهرها الطيور والحيوانات للبدائيين – فى اعتقادهم – غرضين: (١) فهى تعلن عن حوادث مستقبلة، وتدل على نجاحهم أو على إخفاقهم فيما هم بصدد القيام به. وقد تحذر من أن خطرًا لا يخطر بالبال سيقع عاجلا أو آجلا. (٢) وتعتبر فى الوقت



نفسه سببًا غيبيا لهذه الحوادث. فليست العلامات التى تظهرها الطيور والحيوانات مجرد إشارات ونذر أو إعلان لما سيقع فحسب، وإنما هى أسباب له كذلك. فهى تنبئ عن الحوادث ولها القدرة على إحداثها ولذا فهى علامات أكيدة لما سيقع. فهم يعتقدون أنها تجلب لهم النفع وتدفع عنهم الضرر.

ومن علامات الفأل الردىء التى تزعج البدائيين إزعاجًا شديدًا ويتوجسون منها الشر، الكائنات الممسوخة، والظواهر التى تشذ عن المعتاد. فمن المعتقدات الشائعة عند كثير من الشعوب، التطير من الدجاجة التى تصيح صياح الديك، ولذلك فهى تطارد أو تذبح. ومن أقوال العرب: «إذا صاحت الدجاجة صياح الديك فلتذبح» قالها الفرزدق فى امرأة قالت الشعر! وفى وسط أفريقيا (فى أوغندة) كان الأطفال الذين تنبت أسنانهم العليا قبل السفلى يقتلون، لاعتقاد الأهالى أنهم إذا لم يفعلوا ذلك انهالت الكوارث على القرية بسبب هؤلاء الأطفال. وإذا حدث فى أثناء الوضع أن خرج الطفل برجليه أولا، اعتبر - عند البانتو سكان أفريقية الشرقية - جالبًا للنحس وخطرًا على الأسرة وعلى القرية بأسرها.

ويتصل بموضوع التطير اصطلاح عند علماء الأنثروبولوجيا الاجتماعية الذين يدرسون حضارات الجماعات البدائية هو التابو Taboo، وهو لفظة فى لغة سكان جزر بولينيزيا، ولكنها تعبر عن ظاهرة عامة توجد لدى كثير من الجماعات البدائية، ومعناها الأمور المحرمة.

وقد تكون الأمور المحرمة دائمة أو مؤقتة. فالكهنة والملوك والرؤساء والموتى محرمون بصفة دائمة، وكذلك أسماؤهم وكل ما يتعلق بهم. أما الأشخاص المحرمون في فترة معينة فهم النساء في حالة الحيض وفي حالة الإجهاض وفي حالة الوضع، والرجال قبل الخروج إلى الصيد أو الحرب.

ويعنينا في دراسة التطير التفرقة بصفة خاصة بين نوعين رئيسيين من الأمور المحرمة هما :

(أ) الأشياء المحرمة: ومن أمثلتها، الأسلحة القاطعة – الدم – قصاصات الشعر – الأسنان المخلوعة – بقايا الأظافر – بقايا الطعام.

(ب) الأعمال المحرمة: ومن أمثلتها، الاتصال بالأجانب والغرباء – تحريمات خاصة بتناول الأطعمة والمشروبات – الحجاب وإخفاء الوجه في مواقف معينة – الامتناع عن مغادرة المنزل في مناسبات خاصة – الامتناع عن ترك بقايا الطعام وضرورة التخلص منها – تحريمات خاصة بحيوان الطوطم الذى تقدسه القبيلة، وتحرم على جميع أفرادها أن يذبحوه أو يأكلوه أو يمسوه بسوء.

وأول ما يستوقف النظر في فكر التابو هو التحريم والنهى والامتناع عن إتيان أعمال معينة: لا تفعل هذا الأمر، لا تأكل هذا الطعام، لا تمس هذا الشيء. وهى تحريمات قديمة توارثتها هذه الجماعات على مر الأجيال دون أن تعرف لها سببًا. ودون أن يكون لها أى أساس من التفكير المنطقى. وهم لا يناقشون سببها، ولكنهم يعتقدون

أنهم إذا لم يلتزموا باجتناب هذه المحرمات، أو خالفوا تلك النواهي، حل بهم أشد أنواع العقاب، وتعرضوا للكوارث وسوء المصير، ومعظم العقوبات التي تنجم عن انتهاك هذه الأمور المحرمة من نوع غيبي، وتفضي كل خطيئة بطريقة آلية إلى العقاب أو المرض أو الموت. وتبدو الأمور المحرمة وكأنها مشحونة بطاقة غيبية مدمرة تصعق كل من يخالفها أو يستخف بها.

ومن دأب هذه الجماعات تأويل العوارض والكوارث تأويلا غيبيًا. فإذا حلت كارثة بفرد أو أسرة أو قرية أو نزلت بهم سلسلة من الخطوب وضروب الإخفاق، لم يفكروا مطلقًا في إرجاعها للمصادفة، بل لابد أن يكون مردها إلى إتيان أمر محرم. إن خرق التابو أو انتهاكه يعد سببًا عامًا لكل حدث غير مرغوب فيه: كسوء الجو والمرض والإخفاق في الحرب وعدم النجاح في الصيد. ولا يكاد الأهالي يشهدون وقوع مخالفة لإحدى المحرمات حتى يتوقعوا حلول كارثة أو مصيبة. ومن ناحية أخرى، إذا ألمت بهم نازلة، كعاصفة هوجاء، أو جفاف طويل، أو موت مفاجئ، أو مرض خطير، أو فشل في الصيد، فلابد أن يفترضوا وقوع مخالفة وانتهاك عادة محرمة. فكل مخالفة تقابلها كارثة محققة، كما أن كل كارثة أو إخفاق ترجع إلى انتهاك إحدى المحرمات.

وليس من المهم أن تكون المخالفة إرادية أو غير إرادية، شعورية أو غير شعورية، لأن المهم هو كونها وقعت بالفعل. وما دامت قد وقعت فلابد من ظهور نتائجها، بل إن ظهور هذه النتائج هو الذي يلفت النظر إلى وقوع المخالفة. فكل حادثة وكل كارثة دليل على إحدى المخالفات.

وأى مخالفة إنما تنشأ عنها نتائج مستقلة عن نوايا الفاعل: فإذا أجهضت إحدى الحبالى مثلا، أدى إجهاضها إلى انقطاع المطر وهبوب العواصف واختفاء حيوانات الصيد بصورة حتمية، لا بسبب أنها أرادت أن تتخلص من جنينها أو لم ترد، بل لأن الإجهاض قد وقع بالفعل. أما أن يكون هذه الفعل مقصودًا أو غير مقصود فلا أهمية له. إن الذعر والفزع والخوف الشديد من العقاب يحول بين البدائى وخرق التابو أو الاستخفاف به عن عمد. وإذا انتهكه من غير قصد فقد يمرض أو يموت من هول ما اقترف ومن فرط الرعب والفزع الذى يتسلط عليه، ما لم يبادر إلى درء الخطر والتكفير عن المخالفة بطقوس التطهير.

ويجب على من يخترق التابو أن يعترف أولا بخطئه، حتى يزيح عبئًا ثقيلا عن كاهله، وحتى تحترس الجماعة من النحس أو سوء الطالع الذى سيصادفها. فمثلا، يعتقد الإسكيمو أن كل من لمس جثة أو دماء سائلة يصبح تابو. وإذا اشترك فى الصيد مع جماعة، فإن الصيد يجفل منهم.

ويعتقد الرجل البدائى أنه يمكنه التكفير عن سيئاته وعن وقوعه فى المحظور وانتهاكه التابو بطقوس التطهير المعقدة. وقد تكون هذه الطقوس بتكرار بعض الشعائر أو بالعزلة والاغتسال. ومن أمثلة تلك الطقوس ما يقوم به المحاربون فى غينيا الجديدة بعد عودتهم ظافرين من ميدان القتال، فهم يعزلون لفترة من الزمن، ويحرم عليهم الاتصال بزوجاتهم وأصدقائهم، ويمتنعون عن أكل اللحوم، ويقتصر طعامهم على الخضر

والفاكهة، ولا يلمسون طعامهم بأيديهم وإنما يطعمهم غيرهم. وهذه الطقوس يراد بها التطهير والتكفير عما اقترفوه في الحرب.

ويعتقد البدائي أن من لمس التابو صار هو ذاته تابو، بمعنى أنه يعتقد أن التابو ينتشر كالعدوى وينتقل من شيء إلى آخر. مثال ذلك أن قبائل الماوري - سكان نيوزيلندة الأصليين - تعتبر كل ما يتعلق بشيخ القبيلة تابو يحرم الاقتراب منه أو لمسه. وعلى ذلك فلو فرض أن شيخ القبيلة نفخ في نار عليها قدر فيه لحم فإن اللحم يصير تابو، لأن التابو انتقل من أنفاس الزعيم إلى النار، ومن النار إلى القدر، الذي يلامس النار، ومن القدر إلى اللحم الذي يلامس القدر، وبذلك يصبح اللحم محرمًا وكل من أكله تعرض لخطر المرض أو الموت. ويروى أن أحد زعماء الماوري أضاع ذات مرة قداحته فوجدها بعض الأفراد وأشعلوا منها غلايينهم، ولما عرفوا صاحبها انتابهم فزع عظيم، لأن الشيخ يعتبر تابو وقداحته بذلك تابو، وكذلك اللهب المنبعث عنها. وعلى ذلك فإن الدخان الذي كانوا يدخنونه والذي أشعلوه بلهب القداحة كان هو أيضًا تابو. وانتهى أمرهم بأن ماتوا من الفزع.

ويجب ألا نخلط بين الأمور المحرمة عند البدائيين، والنواهي الخلقية عند المتحضرين. فمثل هذه النواهي تقوم على أساس من العقل والمنطق، أما الأمور المحرمة فلا يعرّف لها سبب، وليس لها أساس من التفكير المنطقي. والنواهي الخلقية عندنا لها غالبًا سند في الدين والقانون، أما الأمور المحرمة فالعقاب يحل بمن يخرقها أو يستخف بها بطريقة غيبية تصعقه وكأنما مسته الكهرباء.

وانتهاك الأمور المحرمة لا يهم الفرد وحده، بل قد يكون سيئ المغبة أيضًا بالنسبة إلى المجتمع. ومثال ذلك دم الحيض، فهو تابو لأنه نجس. ولذلك يحرم كثير من الجماعات البدائية كالأستراليين القدماء والزنوج فى أواسط إفريقيا على المرأة الحائض لمس الأشياء التى تخص الرجال، ويقدم لها الطعام فى آنية خاصة أو فى أوراق شجر الموز الذى يسهل التخلص منه بعد ذلك. وقد يصل الأمر عند الهنود الحمر إلى حد عزل الفتاة أو المرأة الحائض حتى تنتهى فترة الحيض.

ويحرص رؤساء القبائل وشيوخها على إلزام الناس احترام الأمور المحرمة، لأن فى مراعاتها نجاة الجماعة وسلامتها. ولذلك استخدم هؤلاء الرؤساء التابو فى تأكيد سلطتهم. وأصبح التابو يقوم بالنسبة للسلطة الضابطة فى القبيلة بنفس الدور الذى يقوم به الضمير (أو الذات العليا) فى نفس الفرد. فالضمير هو الوازع الخلقى الذى ينهى ويحرم، ويقوم بنفس الدور الذى يقوم به التابو فى المجتمعات البدائية.

ويرتبط كثير من الأمور المحرمة عند البدائيين بطقوس تنصيب المراهقين، ويتم فى أثناء هذه الطقوس غرس هذه الأمور المحرمة وتأكيدها فى نفوس البالغين. وتوجد طقوس تنصيب المراهقين عند سكان أستراليا الأصليين، وعند الزنوج فى جنوب إفريقية من قبائل البانتو، كما توجد كذلك عند الهنود الحمر. وتتلخص هذه الطقوس فى عزل الفتيان الذين وصلوا سن البلوغ فى معسكر خاص بهم حيث يتمرسون على بعض الأعمال والحرف، ويتعرضون لضروب من القسوة والحرمان، فيحرم

عليهم تناول أنواع معينة من الأطعمة كاللحوم والأسماك، ويحظر عليهم حمل السلاح أو استخدامه. ويجتازون اختبارات عديدة لتعويدهم قوة الاحتمال. ويلقنون تقاليد القبيلة، وعاداتها المحرمات، والنواهي الخلقية، والأمور المقدسة فيها، كل ذلك وهم بمعزل عن بقية القبيلة، ويحظر على النساء والأطفال الاقتراب منهم. وقبل أن يسمح لهم بالتمتع بحقوق الرجال والاندماج مرة ثانية فى حياة القبيلة، يقام حفل لتنصيبهم. وفى هذا الحفل يمثلون قتل المراهقين وبعثهم من جديد بأسماء جديدة. وتجرى لكل مراهق عملية الختان، ثم تخلع لكل منهم سن من المقاطع الأمامية فى الفك العلوى. وهناك اختلافات فى تفاصيل هذه الطقوس بين الجماعات المختلفة. ولكنها تشترك بوجه عام فى تلك المظاهر التى لخصناها.

ويفسر علماء التحليل النفسى هذه الطقوس القاسية التى يمر بها الفتيان أثناء تنصيبهم، بأنها تفصح عن الصراع بين مشاعر متباينة، وتدل على أن شعور الآباء نحو الأبناء ينطوى على تناقض وجدانى يجمع بين العطف والحب فى الشعور الظاهر والكراهية والعداء فى اللاشعور.

الفصل السادس

علاقة السحر بالتطير

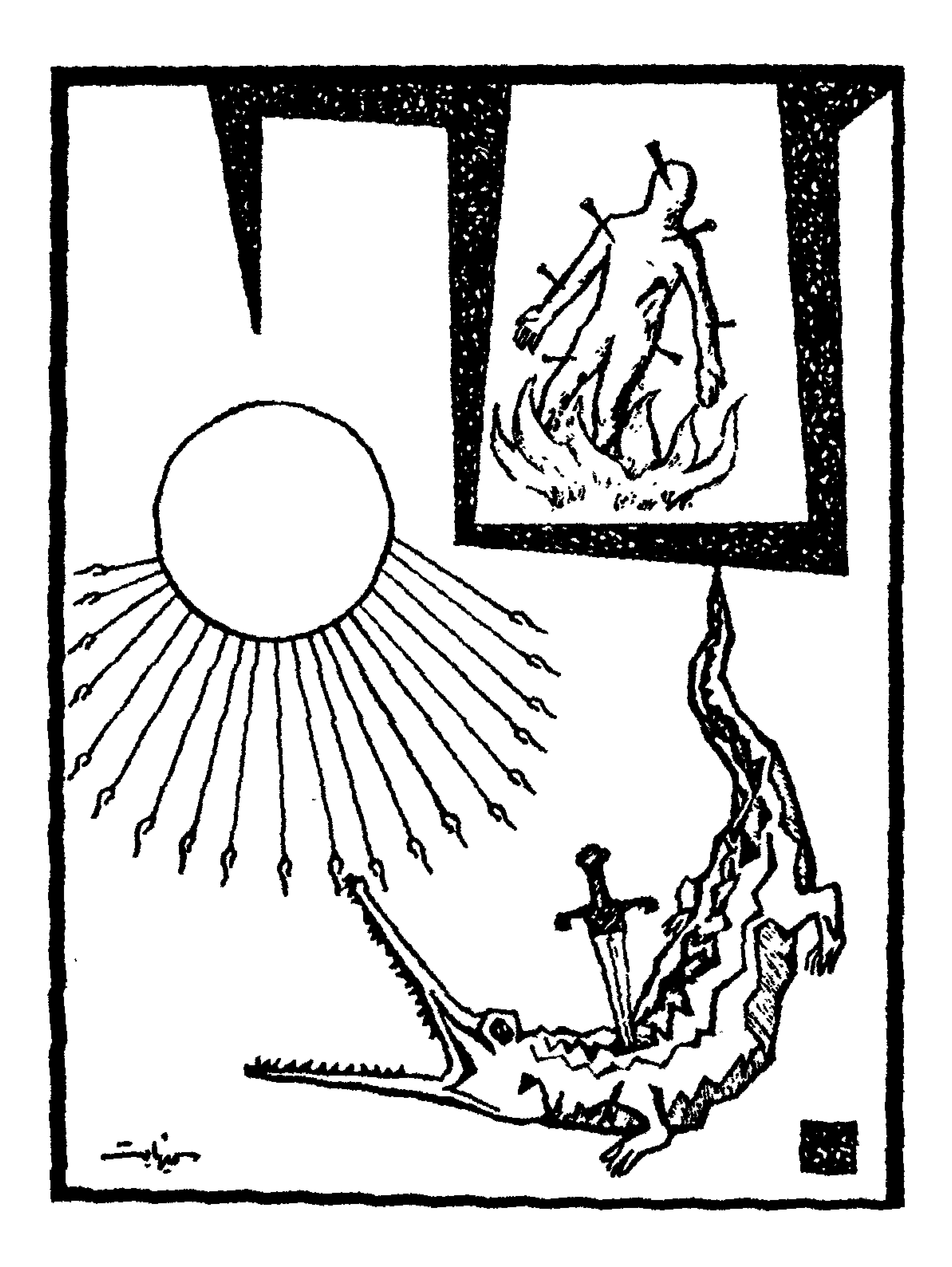
تعتبر دراسة سير جيمس جورج فريزر للسحر فى كتابه: «الغصن الذهبى - The Golden Bough» من أوفى الدراسات وأكثرها شمولا، ذلك لأنها دراسة مقارنة رحبة الأفق عالمية المجال. وقد جمع فريزر بين دفتى هذا الكتاب مئات الأمثلة للسحر من مختلف شعوب العالم البدائية والراقية، ومن مختلف العصور قديمها وحديثها، ثم قام بتصنيف هذه الأمثلة وتحليلها ومقارنتها، واستخلص منها فى النهاية النموذجين الرئيسيين للطقوس السحرية وهما: (١) السحر بالاقتران. (٢) السحر بالتقليد أو بالمحاكاة.

والنوع الأول وهو السحر بالاقتران ينطوى على تطبيق خاطئ لمبدأ ترابط الأفكار بالاقتران أو بالاتصال، وفيه يرمز الجزء للكل. وفى هذا النوع من السحر يزعم الساحر أنه يستطيع إيذاء أى شخص بأن يحصل على أى شىء يرمز له، مثل قصاصة من ملابسه أو خصلة من شعره أو بقايا أظافره أو سنه المخلوعة. وما يحدث لهذا الجزء يحل كذلك بالكل. ويعتقد الرجل البدائى أن الصلة بينه وبين أى جزء من جسمه تستمر حتى بعد أن ينفصل هذا الجزء منه، بحيث إذا أصاب هذا

الجزء (الشعر أو الدم أو السن أو قلامة ظفر) أى مكروه، حل بصاحبه هذا المكروه عن بعد، ولذلك يحرص البدائيون على ألا تقع هذه الأشياء في يد عدو أو كائد، لاعتقادهم أن من وقعت في حوزته هذه الأشياء، وأراد بصاحبها السوء، استطاع أن ينال منه ويؤثر فيه عن بعد. فكل ما يتعرض له الجزء، يحل أيضًا بالكل أى بصاحبه.

أما النوع الثاني، وهو السحر بالتقليد أو بالمحاكاة، فهو تطبيق خاطئ لمبدأ ترابط الأفكار بالتشابه. وبمقتضاه يعتقد الساحر أن في قدرته الحصول على النتائج المرغوبة بتقليدها أو بتمثيلها. وفى هذا النوع من السحر يستعين الساحر على من يريد إيذاءه بدمية صغيرة ترمز له يصنعها من الشمع أو الطين، فإذا غرس إبرة فى أى موضع من هذه الدمية وكرر ذلك مرات عديدة، فإنه يتوقع أن يصاب صاحبها فى ذات الموضع من جسمه. ونلاحظ فى هذا النوع من السحر أن شكل الطقوس السحرية ينمّ عن وظيفتها المرجوّة منها، وأن لكل غرض طقوسًا خاصة هى تمثيل ومحاكاة للغرض المطلوب.

وتقسيم الطقوس السحرية إلى هذين النوعين هو لسهولة الدراسة. وفى الحياة العملية يوجد النوعان معًا. ومن أمثلة وجود النوعين معًا تلك الطقوس السحرية التى يقوم بها السحرة فى الملايو. فإذا أراد الساحر منهم بشخص سوءًا، أخذ قليلا من شعره أو من بقايا أظافره، وأدخلها فى دمية يصنعها من الشمع المأخوذ من خلية نحل مهجورة. وفى كل ليلة يقرب هذه الدمية من النار ويصليها فوقها بعض الوقت دون أن



يحرقها. ويكرر ذلك مدة سبع ليال متوالية. وفى الليلة السابعة يلقى بها فى النار، ويتوقع عندئذ وفاة صاحبها.

على أن السحر لا يقتصر استخدامه على الإيذاء، بل يستخدم فى أغراض أخرى بدعوة المساعدة فى الولادة، وفى علاج الأمراض، وفى استنزال المطر، وفى استجلاب الحظ فى الصيد وفى الحرب، إلى غير ذلك من الأغراض والادعاءات؛ وكلها تنطوى على التطبيق الخاطئ لترابط الأفكار بالاقتران، وترابط الأفكار بالتشابه.

ويمكن أن نتعرف فى السحر عند قدماء المصريين على هذين النوعين. فقد كان الكهنة المصريون فى طيبة يقومون بطقوس سحرية للمعبود رع إله الشمس. وهذه الطقوس يراد بها مساعدة الشمس على الظهور، وذلك بالتنكيل بعدو الشمس المدعو (إيبيبى) ويرمز له بالتمساح. وتتلخص هذه الطقوس فى عمل دمية للتمساح من الشمع يكتب عليها اسمه بالمداد الأخضر، وتغلف هذه الدمية فى ورق البردى ويرسم على هذا الغلاف رسم آخر للتمساح بالمداد الأخضر، ويربط بشعر أسود، ثم يطعنها الكاهن بمدية، ويطرحها أرضًا ويطؤها بقدمه اليسرى، وأخيرًا يلقى بها فى النار. وكانت هذه الطقوس تتكرر مرات عديدة فى اليوم الواحد. يتضح من هذا المثال بجلاء المبدآن الأساسيان اللذان يرجع فريزر السحر إلى تطبيقهما الخاطئ، وهما ترابط الأفكار بالاقتران - أى الدمية التمساح ترمز لعدو الشمس، وترابط الأفكار بالتشابه كأنما التنكيل بعدو الشمس وتكرار ذلك، يساعد الشمس على الظهور والتغلب على عدوها.

وإلى هذين النوعين تستطيع أن تنسب شتى ضروب الدخل ومختلف صنوف الشعوذة كما توجد بين جميع الشعوب وفى مختلف العصور. ومن الطريف أن كلا النوعين معروف فى مصر. فإلى وقت قريب كان بعض العامة يلجأون إلى الدجالين وبصفة خاصة النساء اللائى يشكون من العقم، والمرضى بأمراض مستعصية. ويدخل الدجال فى روعهم أنه (معمول لهم عمل سحرى أو كتابة) وأنه يستطيع أن يستخرجها. ويفسر الدجال طريقة العمل بأن بعض ذوى النيات السيئة استحوذ على أثر (وتنطق بالتاء) وهذا الأثر هو أى شيء من متعلقات الشخص الذى عمل له العمل كمنديل يخصه أو قصاصة من ملابسه، وعمل عليه الكتابة عند أحد السحرة، ثم دفن هذه الكتابة فى المقابر أو تحت عتبة الباب أو رشها له في طريقه بحيث يمر عليها. ولو أتيح للقارئ أن يفحص إحدى هذه اللفائف التى يستخرجها الدجال (الكتابة، أو العمل السحرى) لوجد قصاصة من قماش يزعم الدجال أنها من ملابس الشخص المعمول له العمل، وورقة بالية مدونة فيها رموز غريبة واسم الشخص واسم والدته، وأجزاء من عظام ميت وتراب المدفن، وغالبًا ما يشير الدجال بإلقاء هذه اللفافة بمحتوياتها فى الماء الجارى وبذلك يفك العمل، وتذهب المتاعب إلى غير رجعة.

السحر والتابو :

رأينا أن التطير من التابو أو الأمور المحرمة ينتشر انتشارًا كبيرًا بين الجماعات البدائية المعاصرة، وأمثلته كثيرة لا تقع تحت حصر. وقد

ذكرنا بعض هذه الأمثلة فى الفصل السابق. والتابو هو الناحية السلبية للسحر. وينطوى كذلك على التطبيق الخاطئ لترابط الأفكار بالاقتران وترابط الأفكار بالتشابه.

وتوضح الأمثلة التالية العلاقة الوثيقة بين السحر والتابو :

الأسنان المخلوعة :

من العادات الغريبة لدى بعض الجماعات البدائية تحطيم سن أو اثنتين من المقاطع الأمامية فى الفك العلوى فى أثناء إجراء طقوس تنصيب المراهقين والاحتفال بختانهم. وقد أشرنا فيما سبق إلى هذه الطقوس. ولهذه الأسنان التى تخلع فى طقوس تنصيب المراهقين قيمة سحرية. لأن هذه الجماعات البدائية تعتقد أن العلاقة تستمر بين المراهق وسنه المخلوعة. فالسن جزء يرمز للكل. وسن الشخص رمز للشخص نفسه. وما يتعرض له الجزء يحل كذلك بالكل عن بعد. ومثل السن المخلوعة كمثل الخصلة من الشعر أو قلامة الظفر التى يحرص أفراد هذه القبائل البدائية على ألا تقع فى يد عدو أو كائد، لاعتقادهم أن من وقعت فى حوزته هذه الأشياء وأراد بصاحبها السوء، استطاع أن ينال منه ويؤثر فيه عن بعد: فكل ما يتعرض له الجزء يحل أيضًا بالكل أى بصاحبه، بمقتضى السحر بالاقتران، كما سبق القول.

ويعتقد سكان أستراليا الأصليون أنه إذا دفنت السن المخلوعة أسفل شجرة أو ألقيت فى النهر، لا يصاب صاحبها بسوء. أما إذا جرى عليها النمل، أصيب صاحبها بمرض فى فمه. ولا تزال بقايا هذه

المعتقدات سائدة عندنا فى الريف حيث جرت العادة بإلقاء أسنان التبديل فى عين الشمس والقول «يا شمس يا شموسة خذى سنة الجاموسة وهاتى سنة العروسة».

وتحقق الأسنان المخلوعة للبدائيين وظيفة هامة، ذلك أن شيوخ القبائل يحتفظون بالأسنان المخلوعة في طقوس تنصيب المراهقين. فالسن المخلوعة بمثابة (الأثر) أو الجزء الذى يرمز للكل فى طقوس السحر. ويحتفظ شيوخ الجماعة بهذا (الأثر) كرهينة يستطيعون بواسطتها أن يتحكموا فى مصير الفتى. لأن من امتلك السن فكأنما امتلك زمام الشخص، واستطاع بها إذا أراد أن يتحكم فى مصيره عن بعد. فهذه العادة وهي الاحتفاظ بالأسنان المخلوعة، هى جزء من الطقوس التى تلجأ إليها السلطة الضابطة فى القبيلة لضمان طاعة أفرادها وضبط سلوكهم، وللمحافظة على تقاليد القبيلة ونظامها، ولغرس هذه التقاليد، وضمان استمرارها وعدم الحيد عنها أو الاستخفاف بها.

خصلات الشعر :

إن الاعتقاد فى إمكان السحر بواسطة خصلة من شعر الشخص أو بقايا أظافره أو قصاصة من ملابسه أو أى «أثر» له ذائع الانتشار فى جميع أنحاء العالم. وللشعر قيمة سحرية عند الجماعات البدائية بصفة خاصة. ذلك أن البدائى يعتقد أن الاتصال (الغيبى) يستمر بينه وبين أى جزء ينفصل عنه، وأن ما يصيب الجزء يحل كذلك بصاحبه حتى بعد أن انفصل الجزء منه. ومن هنا كان لخصلة من شعره، أو قلامة

أظافره، أو سنة مخلوعة من أسنانه قيمة سحرية، إذا ما وقعت في يد عدو أو ساحر يستخدمها في إيقاع الأذى به.

ويعتبر الشعر عند بعض الجماعات البدائية من الأمور المحرمة «تابو». والتابو هو الناحية السلبية للسحر. فالسحر عمل إيجابي بمعنى أنه بخصلة من الشعر يمكن عمل العمل السحري. أما التابو فسلبي، هو التطير من قص الشعر خوفًا من استخدامه في السحر. ولذلك يحرص البدائي على ألا تقع قصاصات شعره في يد ساحر أو عدو يكيد له، ولذلك يتوخى الحرص في التخلص من بقايا الشعر، فيلقي بها في الماء الجاري، أو يدفنها. في الأرض أو في مكان مأمون. ولا تزال بقايا هذه الاعتقادات في مجتمعنا الشرقي، وتبدو في حرص نساء الجيل القديم على التخلص من بقايا الشعر المتخلف في المشط بعناية بإلقائه في المرحاض.

ومن أسباب التطير من قص الشعر، اعتبار الشعر مكمن القوة، وقصه ينذر بفقدان هذه القوة. وهو اعتقاد قديم ورد في التوراة في قصة شمشون ودليلة، إذ فقد شمشون قوته حين قص شعره. والاعتقاد بأن الشعر مكمن القوة، وأن حلقه يؤدي إلى تبديد هذه القوة، اعتقاد شائع لدى كثير من الشعوب البدائية. فعند زنوج غرب إفريقية طبقة من السحرة يطلق عليهم «صناع الأمطار» وظيفتهم في كل قبيلة استنزال المطر! وهؤلاء السحرة يمتنعون عن حلق شعر رؤوسهم طوال حياتهم، لظنهم أنهم إذا حلقوا رؤوسهم، فقدوا القدرة على استنزال المطر. وكذلك من كان عليه أن يأخذ بثأر، احتفظ بخصلة من شعره غير محلوقة حتى يتم له أخذ الثأر ثم

يحلقها، لأن حلقه إياها قبل أن يأخذ بثأره يبدد عزيمته. والأمثلة كثيرة على أن قص الشعر يقترن عند الجماعات البدائية بفقدان القوة. وقد يصل التطير من قص الشعر إلى حد عدم قصه على الإطلاق، كما يروى عن ملوك الفرنجة القدماء. كذلك تروى قصص محاكم التفتيش في العصور الوسطى في أوربا، اضطهاد الساحرات وقص شعورهن حتى يفقدن القدرة على السحر.

وينطوى قص الشعر فيما يلوح للبدائى على خطر غيبى. ولذلك تقوم بعض الجماعات البدائية بطقوس معقدة قبل عملية حلق شعر الرأس أو في أثنائها أو بعدها. والغرض من هذه الطقوس اتقاء الخطر الناشئ من قص الشعر. فعند الماورى - سكان نيوزيلندة الأصليين - تتلى التعاويذ على سكين الصوان الذى يقطع به الشعر. كما أن كل من يقص شعره يعزل بضعة أيام ويصبح بدوره «تابو». كذلك يعيش الحلاق عندهم في عزلة ويحرَّم عليه الاختلاط بالناس ولا يسمع له بلمس طعامه بيديه، لذلك يطعمه غيره ويقوم بطقوس معقدة من وقت إلى آخر لتطهير نفسه.

ويحتفظ شيوخ القبيلة في هذه الجماعات بالشعر المحلوق كرهينة عندهم. به يضمنون حسن سير وسلوك الأفراد الذين يصبحون طوع أمر هؤلاء الكبار الذين ملكوا زمامهم فلا تسوّل لهم نفوسهم الخروج على نظم القبيلة وعاداتها. فوظيفة بقايا الشعر المحلوق عند شيوخ القبيلة كوظيفة الأسنان المخلوعة في طقوس تنصيب المراهقين. فهى رهائن يحتفظون بها ويستطيعون بواسطتها التحكم في مصائر الفتيان، لأن خصلة الشعر

أو السن بمثابة (الأتر) ومن امتلكها فكأنما امتلك زمام صاحبها إذ يمكنه استخدامها فى الأغراض السحرية.

ومجمل القول، تقع أمثلة التابو فى نوعين رئيسيين هما :

١ - الأشياء المحرمة :

وهى الأشياء التى يعتقد البدائيون أنها يمكن أن تستخدم فى السحر مثل: الشعر - بقايا الأظافر - الأسنان - الدم - اللعاب - الملابس - الأتر - الاسم - بقايا الطعام. . . . وهى ذاتها الأشياء المحرمة أو التابو التى تبعث على التطير. ويعتقد الرجل البدائى أن الصلة بينه وبين أى جزء من جسمه كخصلة من شعره أو دمه أو سنه أو قلامة أظافره أو أى جزء من ملابسه أو أدواته، تستمر حتى بعد أن ينفصل هذا الجزء منه، بحيث إذا أصاب هذا الجزء مكروه حل ذلك المكروه به عن بعد. وهذا هو التطبيق الخاطئ لمبدأ ترابط الأفكار بالاقتران فالأشياء التى تبعث على التطير، والتى تعتبر تابو، كلها بمثابة «الأتر» الذى يمكن أن يستخدم فى السحر بالاقتران. ولذلك يحرص الرجل البدائى حرصًا شديدًا على ألا يعرض هذه الأشياء للخطر، وعلى ألا تقع فى يد غريم أو ساحر حتى لا يستخدمها فى الإضرار به.

٢ - الأعمال المحرمة :

التابو هو الناحية السلبية للسحر. هو الامتناع عن إتيان أعمال خوفًا من نتائجها الضارة. وإذا كان الرجل البدائى يعتقد أنه يستطيع أن

يحصل على نتائج معينة بمحاكاتها بطقوس السحر بالتقليد، فهو يمتنع كذلك عن عمل أشياء يعتقد أنها تؤدى إلى نتائج ضارة. أى يتجنب الأعمال المحرمة أو التابو، بنفس الطريقة التى يمتنع بها المتطير عن المرور أسفل السلم الحائطى أو فتح المظلة داخل المنزل. وإذا كان الهدف من السحر هو تحقيق الرغبات والحصول على النتائج بتمثيلها ومحاكاتها، فإن هدف التابو - أو السحر السلبى كما يسميه فريزر - هو النهى عن أعمال خوفًا مما قد يترتب عليها من نتائج ضارة أو خطرة. وبذلك ينطوى تجنب الأعمال المحرمة والتطير منها على التطبيق الخاطئ لمبدأ ترابط الأفكار بالتشابه.

الاستجابة المكتسبة الشرطية :

سبق لنا أن أثبتنا بما لا يدع مجالا للشك طريقة اكتساب التطير على أساس الفعل المنعكس الشرطى، وتجارب بافلوف - (انظر الفصل الثانى). ونستطيع أن نفسر السحر كذلك على أساس الاستجابة المكتسبة الشرطية. لقد رأينا أن فريزر استخلص فى دراسته المقارنة للسحر النموذجين الرئيسيين للطقوس السحرية وهما: السحر بالاقتران، والسحر بالمحاكاة. وهذا التقسيم هو لسهولة الدراسة. وفى الحياة العملية يوجد النوعان معًا.

ومن الطريف أن هذين النوعين يقابلان ناحيتين متكاملتين فى ميكانيزم الشرطية ورمزيتها. ويتوافر فيهما الشرطان اللازمان لتكوين الاستجابة المكتسبة الشرطية. وهذان الشرطان هما: الجزء الذى يرمز للكل، والتكرار للتثبت. ففى النموذج الأول، وهو السحر

بالاقتران، يرمز الجزء للكل، أى أن شعر الشخص أو بقايا أظافره أو قصاصة من ملابسه ترمز للشخص كله. وفى النموذج الثانى، وهو السحر بالتقليد، ترمى الطقوس إلى تكرار تمثيل وتقليد الغرض المطلوب. ومثال ذلك وخز الدبابيس فى المسخ المصنوع من الشمع أو من الطين، وميكانيزم الشرطية فى هذا النوع هو التكرار للتثبيت.

ومما يؤيد صحة تفسير السحر والتطير من التابو على أساس الشرطية، تلك المقابلة التى نتبينها بين نموذجى السحر (السحر بالاقتران والسحر بالتشابه) والتطير من التابو أى الأشياء المحرمة والأعمال المحرمة، وينطوى السحر والتابو كلاهما على التطبيق الخاطئ لمبدأ ترابط الأفكار. (١) فالسحر بالاقتران، ويقابله التطير من الأشياء والرموز، ينطوى على التطبيق الخاطئ لمبدأ ترابط الأفكار بالاقتران. (٢) والسحر بالمحاكاة، ويقابله التطير من الأعمال، ينطوى على التطبيق الخاطئ لمبدأ ترابط الأفكار بالتشابه. وهذه المقابلة بين السحر والتطير من التابو، وتفسيرهما على أساس الفعل المنعكس الشرطى، على جانب كبير من الأهمية، وذلك لأن الشرطية تستند إلى التجريب العلمى.

ولا تقف المقابلة بين السحر والتطير من التابو عند حد اعتبار التطير ناحية سلبية للسحر، وإمكان تفسير كل من السحر والتطير على أساس الشرطية، بل إنهما يشتركان فى خصائص أخرى كثيرة، أهمها:

السببية الخاطئة :

يقوم السحر على السببية الخاطئة، فنظرًا للجهل بأسباب الظاهرات الطبيعية كالمطر، ينسب سقوطه إلى قدرة الساحر على استنزاله. وفى حالة الجهل بأسباب المرض، ينسب المرض إلى فعل السحرة. ولذلك قيل فى تعريف السحر بأنه التماس النتائج من غير أسبابها. وهذا هو الفارق الهام بين السحر والعلم. فالقوانين السببية العلمية ثابتة ومؤكدة، ويمكن إعادة إجراء تجربتها للتأكد من صدقها وثبوتها. فإذا قلنا إن الحديد يتمدد بالحرارة، وإن الملاريا ينقلها نوع خاص من البعوض، فالحرارة هى سبب التمدد، والبعوض هو حامل ميكروب الملاريا وسبب نقل هذا المرض. وليس تمدد الحديد ولا الملاريا نتيجة أسباب أخرى. أما فى السحر فالنتائج قد ترجع للقضاء والقدر، أو للمصادفة. وقد يرجع لأسباب كشف عنها العلم، ومع ذلك تنسب النتائج إلى السحر، أى إلى غير أسبابها. ومثال ذلك: هب أن النور الكهربائى انطفأ فجأة. سبب ذلك معروف، ويرجع غالبًا لوجود عطل أو خلل فى الأسلاك أدى إلى انقطاع التيار. ولكن هب أن دجالا أطلق البخور وتمتم بالتعاويذ، فهل تفيد هذه الطقوس فى إعادة النور؟ وعندما يعود النور بعد ذلك فجأة. فهل تكون عودة النور نتيجة لطقوس الدجال أم لأنه قد تم إصلاح ما فى الأسلاك من خلل؟ وكذلك يسقط المطر فى الجهات الاستوائية والمدارية فى معظم أيام السنة. وهو يرجع لعوامل مناخية معروفة، ولكن القدرة على استنزاله تنسب - عند الجماعات البدائية التى تسكن هذه الجهات - إلى سبب وهمى خاطئ هو الطقوس السحرية. وكذلك خسوف القمر،

وهو ظاهرة كشف العلم بجلاء عن سببها. ولكن العامة تعتقد أن بنات الحور هى التى تخنق القمر، ويبدو وكأنما دق الصفائح هو الذى يكشف عن القمر غمته، ويحيل ظلمته نورًا.

والتطير كذلك لحمته وسداه السببية الخاطئة. ونستطيع أن نفسر التطير من كثير من الأمور المحرمة الشائعة بين العامة فى مصر على أساس السببية الخاطئة. فمن المعتقدات السائدة بين العامة اعتقاد قديم مؤداه أن الدخول على المرأة التى قامت من الوضع بلحمة نيئة أو باذنجان أسود أو جريد أخضر أو ذهب بندقى يؤدى إلى ما يعرف بالكبس، فيجف لبن الأم وتسوء صحة الطفل، أو تصاب الأم بالعقم فلا تحمل بعد ذلك. وهذه الأمور المحرمة التى يظن العامة عندنا أنها تؤدى إلى الكبس، لها نظائر عند كثير من الجماعات المحدودة المدنية فى المحرمات والنواهى التى ترتبط. ولد الطفل تعرف باسم الكوفيد، التى سنتكلم عنها فى الفصل الأخير من هذا الكتاب. أما بالنسبة لما يعرف عندنا بالكبس، فالدافع إلى تحريم الدخول بهذه الأشياء على السيدة التى قامت من الوضع حديثًا هو الحرص على صحة الأم وصحة الطفل باتخاذ هذه الاحتياطات الوهمية. ونظرًا للجهل بالوسائل الطبية الناجعة للمحافظة على صحة الأم وصحة الطفل، نسبت إلى هذه الأشياء القدرة على إحداث الضرر بالطفل الوليد أو بأمه، وعندما ساد الاعتقاد فى ضرر هذه الأعمال المحرمة، لم يجسر أحد على تحديها.

ويلوح أن الفترة التى تقترب فيها الحامل من الوضع من الفترات العصبية التى يصحبها الترقب والتوقع. وعندما ترزق الأسرة طفلا يختل

النمط الذى تسير عليه حياتها. وليس بمستغرب فى هذه الفـترة الحرجـة التى تضطرب فيها حياة الأسرة التـى طـرأ عليـها شـىء مـن التغـير فـى وتيرة العلاقات بين أفرادها، أن تتخذ الاحتياطات الوهميـة والتحريمـات التى تبدو فى ظاهرها وكأنما ترمى إلى المحافظة على صحة الأم وصحـة الطفل، ولكن التحليل النفسى يبين أن هذه المغالاة فـى الحـرص والحـذر إنما هى رد فعل أو تعويض يخفى عكس مـا يظـهر، ويعـبر عـن تنـاقض وجدانـى حيـال الأم وحيـال الطفـل ينطـوى علـى المحبـة والعطـف فـى الشعور الظاهر، ويخفى العداء والكراهية اللاشـعورية - كمـا سـيتضح مـن دراستنا لطقوس الكوفيد.

الفصل السابع

الحالات العصابية من التطير

التطير درجات ودرجات، يبدأ بالحالات الخفيفة المستمدة من المعتقدات السائدة فى المجتمع، وينتهى بالحالات العصابية (أى المرضية النفسية). وقد اعتبرنا الحالات المشروطة للتطير من الرموز والمنبهات الداخلية - كما تبدو فى الأكال والاختلاج - حالات متوسطة، هي من ناحية أشد فى الدرجات من الحالات الخفيفة التي تكتسب بالمحاكاة من البيئة المنزلية - ومعظمها من الرموز الخارجية - وهي من ناحية أخرى أخف وطأة أو أقل فى الدرجة والشدة من الحالات العصابية.

والفرق بين العصابى والسليم فرق فى الدرجة. إذ أن الحالات العصابية تبدو وكأنما ننظر إليها وهى تحت المجهر فتظهر مكبرة، ولها نظائر بصورة مصغرة لدى الأشخاص العاديين الذين نصادفهم فى الحياة اليومية. ومع أن الفرق بين العصابى والسليم فرق فى الدرجة، إلا أن هناك نوعين رئيسيين من العصاب هما: الهستيريا، والعصاب القهرى، وهما على طرفى نقيض، والعلاقة بينها علاقة استقطاب وتناقض. ويتوقف الاتجاه إلى أحد هذين النوعين أو إلى الآخر على التأثير النسبى للدوافع المكبوتة أو القوى الكابتة. ففى حالة الهستيريا

يبدو وكأنما تغلبت الرغبات والدوافع المكبوتة. أما في حالة العصاب القهرى، فتظهر المغالاة في الضبط والقمع، وكأنما تغلبت القوى الكابتة في العقل أو الضمير.

وهذان النوعان من العصاب على علاقة بنماذج الشخصية ليونج. فالهستيريا هي العصاب الأكثر شيوعًا لدى المنبسط، على حين أن المرض النفسي الذي يكون المنطوى معرضًا له بصفة خاصة هو العصاب القهرى.

العصاب القهرى :

تدخل الحالات المتطرفة من التطير في عداد حالات العصاب القهرى أو الوسواس المتسلط. والمصابون بهذا المرض النفسي يحرمون على أنفسهم أشياء كثيرة لا ضرر منها، دون أن يعرفوا لهذا التحريم سببًا. ولهم في ذلك تحريمات غريبة. فمنهم من يحرم على نفسه لمس شيء معين. ومنهم من لا يطيق أشياء أو أدوات مما تستخدم في الحياة العادية ويصر على إبعادها من أمامه، ولا يستريح ويهدأ له بال إلا إذا تم له ما أراد. ومنهم من يجد نفسه مجبرًا على تكرار أعمال معينة دون سبب معقول، مثل غسل اليدين عدة مرات في اليوم، أو عد درجات السلم التي يعرف عددها وقام بعدها في صعوده وهبوطه عليها كل مرة. ومنهم من يخاف أن يبدأ سيره بالقدم اليسرى أو يتنجب المشى على الخطوط البيضاء في الشارع، إلى غير ذلك من ضروب الوسواس وفنونه التي لا أساس لها من التفكير المنطقي. ويدرك المصاب بهذا الداء إدراكًا واعيًا غرابة أطواره، وأن مخاوفه غير معقولة ولا مبرر لها، وأن الأعمال التي يحظرها على

نفسه أو يعافها ويتهيبها خاصة به دون غيره من سائر الناس. ولكنه لا يملك أن يغير من أمره أو أن يتحرر من مخاوفه. وإذا تصادف ووقع فى المحظور، أو لمس الشيء الممنوع، أو خرج عن القيود والتحريمات التى فرضها على نفسه، توقع الشر المستطير، وانتابه القلق الذى لايطاق. ومثل العصابى الذى يتجنب أعمالا أو أشياء معينة مخافة أذاها وما ينجم عنها من شر، كمثل المتطير الذى يمتنع عن إشعال ثلاث سجائر بعود واحد من الثقاب، أو يتجنب السير تحت سلم الحائط الخشبى، مع فارق هام هو أن التطير من مثل هذه الأعمال يشترك فيه كثير من الناس، ويكتسب بالتقليد والمحاكاة، ويشتق من العادات السائدة فى المجتمع. أما تحريمات المصاب بالعصاب القهرى التى يلتزمها ويرقبها بدقة، فهى تحريمات خاصة به، يضعها بنفسه لنفسه، وتختلف عن التطيرات المنتشرة فى المجتمع.

ومن أعراض العصاب القهرى التشاؤم المفرط وتوجس الشر وتوقع أسوأ الاحتمالات. وهذه هى سمات المنطوى. وغالبية الذين يصابون بالعصاب القهرى ينتمون إلى النموذج المنطوى. والمريض بهذا الداء تختل فى حسه قيم الأعمال والأشياء والأفكار. وقد رأينا أمثلة من الأعمال التى يحرمها المصاب بهذا العصاب على نفسه أو التى يرى نفسه مجبرًا على القيام بها، كما رأينا أمثلة الأشياء التى يعافها ويتهيبها. بقى عالم الأفكار الذى يهيم فيه المصاب بهذا الداء. إنه عالم ملىء بالأفكار السوداء التى تطارد صاحبها وتلاحقه. وفى أحلام يقظته قد يجتر أفكارًا تدور حول الدفاع عن نفسه ضد ما يوجه إليه من تهم أو ذنوب لم يقترفها!! ومع

ذلك يشرد ذهنه في محاولة تبرئة نفسه منها بالأدلة والبراهين، الأمر الذى يبين بوضوح أنه كان يتوق فى قرار نفسه إلى ارتكاب هذه الذنوب. وظلت هذه الأفكار في مستوى ما قبل الشعور دون أن تخرج إلى حيز التنفيذ وتغلبت القوى الكابتة في العقل، قوى القمع والضبط، فأسفر الصراع عن تيار متصل من الهواجس والوسواس وتأنيب الضمير. فالضمير (أو الذات العليا) هو الذى يقوم بالتحريم والقمع والعقاب، وهو الذى يضع النواهي والمحرمات والتابوات. ولذلك نرى المصاب بهذا العصاب يتوجس الشر، ويستشف الخطر، ويتوقع الكوارث، ويتسلط عليه الخوف من أن تحل بعائلته أو بأحد أفرادها كارثة أو مصيبة. وإذا استفسر عن أحد من معارفه يكون قد غاب عنه مدة طويلة، توقع أن يسمع أنه توفى. وإذا ذكر أى شخص بسوء تسلطت عليه فكرة أنه سيموت قريبًا، فيهبط كاهله بالشعور بالذنب وبأنه مسئول عن وفاته. وهذه المبالغة في الشعور بالذنب على جرم لم يرتكبه فعلا، الدافع إليها لا شعورى نتيجة لتمنياته الشريرة السابقة للغير بالموت.

ومن أعراض العصاب القهرى كذلك، ما يطلق عليه فرويد «القدرة المطلقة للفكر» أى المغالاة في تقدير الفكرة النفسية في الدخل إذا ما قورنت بما يقابلها من حقيقة الواقع في الخارج، بحيث يكون المعول عليه هو الفكرة، فهى قادرة فى حد ذاتها على إحداث التأثير في الخارج تلقائيًا بمجرد ورودها على الخاطر. وإذا ما حاول المعالج أن يكشف عن خبيئة ما فى اللاشعور، خشى المريض المتطير أن يفصح عن هذه المخاوف، حتى لا تتحقق فعلا فيرى مكروهًا فى عزيز لديه.

مرض التابو :

يرجع إلى فرويد الفضل فى إثبات العلاقة بين العصاب القهرى والتابو، فى كتابه «الطوطم والتابو» الذى أورد فيه أمثلة عديدة للتابو بين الجماعات البدائية، نقلا عن كتاب «الغصن الذهبى» لفريزر، وأمثلة أخرى لتحريمات المصابين بالعصاب القهرى. ووازن بين الأمراض فى الحالتين، فوجد من الخصائص المشتركة بينهما ما دعاه إلى أن يطلق على العصاب القهرى اسم «مرض التابو».

فالمريض بالعصاب القهرى يضع لنفسه تحريمات خاصة يلزم نفسه باتباعها. وهذه التحريمات مستقلة عن التطيرات المتعارف عليها فى المجتمع، ولذلك تختلف هذه التحريمات من عصابى إلى آخر. ومع أن العصابى يدرك غرابة أطواره، فإنه لا يدرى عن دوافع هذه التحريمات شيئًا. لكنه يجد نفسه مجبرًا على الامتناع عن أشياء أو أعمال معينة، ويحس بقلق شديد إذا لم يلتزم بهذه النواهى والمحرمات، ويتوقع العقاب الذى لا مفر منه فى شكل خطر محقق يحل بأحد أفراد عائلته.

وقد رأينا أن التابو ينتقل كالعدوى باللمس. فالشخص أو الشىء الذى يلامس شيئًا محظورًا يصبح بدوره محرمًا. فمثلا يعتبر رئيس القبيلة عند الماورى محرمًا، وإذا نفخ فى النار، فإن الخطر يمتد إلى القدر ثم إلى اللحم فى القدر، فمن يأكله يتعرض لخطر الموت. وخاصية انتقال التابو من شىء إلى آخر نجدها أيضًا فى الأفعال العصابية القهرية. ونضرب مثلا لذلك حالة سيدة من مرضى فرويد كانت لا تطبق رؤية بعض

الأدوات المنزلية أو لمسها. وتلح فى إبعادها من أمامها. وقد وجد بالتحليل النفسى أن سبب ذلك هو أنها عرفت أن زوجها اشترى هذه الأدوات من محل يقع فى شارع معين وليكن اسمه مثلا شارع (شتاج)، وظهر أن هذه السيدة كانت قبل أن تتزوج قد أحبت رجلا يدعى شتاج، وأنها تقاوم فى نفسها الرغبة فى العودة إليه. وبذلك أصبح هذا الاسم مستحيلا أى تابو، ثم انتقلت هذه (الاستحالة) حتى شملت كل شىء يتصل بهذا الاسم من قريب أو بعيد.

وموقف العصابى إزاء التحريمات القهرية التى يفرضها على نفسه، كموقف البدائى إزاء التابو أو الأمور المحرمة، كلاهما ينطوى على تناقض وجدانى، فالمبالغة فى التحريم والقمع فى الظاهر، تخفى رغبة لا شعورية فى إتيان الأمر المحرم، لأن كل ممنوع مرغوب، ولو لم يكن مرغوبًا لما كانت هناك ضرورة لتحريمه أو منعه. وأداة التحريم والمنع عند الجماعات البدائية هى السلطة الضابطة فى المجتمع ممثلة فى رؤساء القبيلة وشيوخها الذين يرغمون أفرادها على احترام الأمور المحرمة. وأداة التحريم والقمع عند المصاب بالعصاب القهرى هى القوى الكابتة فى العقل أى الضمير أو الذات العليا.

ومثل التحريمات العصابية القهرية، كمثل الأمور المحرمة أو التابو يمكن التكفير عنها بالقيام ببعض طقوس التطهير التى تبدو كالأفعال الوسواسية المتسلطة التى تلح على المريض ويجد نفسه ملزمًا أو مجبرًا على القيام بها، مثل غسل اليدين عدة مرات فى اليوم أو التزام نظام معين فى الاستحمام والخلع واللبس، إذا حاد عنه بدأ

من جديد. وهذه الأفعال المتسلطة التى تتكرر فى صورة رتيبة أشبه بطقوس التطهير أو التكفير عن الأمور المحرمة عند البدائيين. وعلى ذلك يمكن تلخيص الخصائص المشتركة بين التابو وأعراض العصاب القهرى فيما يلى :

١ - عدم وجود دافع شعورى للتحريمات أو النواهى. فالعصابى لا يدرى شيئًا عن الدوافع التى تجبره على وضع التحريمات القهرية التى يلزم نفسه بها. وكما أن البدائى لا يستطيع أن يقدم تفسيرًا واضحًا للأمور المحرمة أو التابو. وذلك لأن الدافع فى كلتا الحالتين لا شعورى.

٢ - الإلحاح الداخلى المتسلط فى التحريمات القهرية وفى الأمور المحرمة أو التابو. وصفة الإلزام والجبر، وشعور الإنسان بقلق شديد إذا لم يراعها بدقة. وتوقع العقاب الذى لا مفر منه إذا حاد عنها.

٣ - قدرتها على الانتقال من شىء إلى آخر والانتشار كالعدوى باللمس أو بغيره. فالماورى لا يذوق اللحم الذى نضج فى قدر وضع على نار نفخ فيها شيخ القبيلة. والعصابى القهرى لا يطيق أن يضع فى منزله شيئًا يذكره بشخص آخر صار يكرهه كراهية التحريم، ولا يطيق أن يرى ما يذكره به.

٤ - الأمور المحرمة فى التابو وفى العصابى القهرى تخفى رغبة لا شعورية فى إتيانها. فأساس المحظور شىء يمنع ويحرم وينطوى على رغبة كامنة ملحة فى استباحته. وكل ممنوع يمنع رغبة.

٥ - الأمور المحرمة في التابو وفي العصابي القهري تملى على من تتسلط عليه فعل عمل معين دائمًا لا يستطيع أن يتحرر منه، يتكرر في صورة معينة لا تتغير حتى يصير بمثابة نوع من الشعائر أو المراسيم، ينشأ من الشيء المحرم، ويرمي إلى التكفير عنه.

على أن هناك اختلافات بين التابو والعصاب القهري أهمها:

١ - العصابي القهري هو الذي يضع التحريمات والنواهي الخاصة به. فهو يضع لنفسه بنفسه تطيرات أو تابوات خاصة به مستقلة عن الأمور المحرمة السائدة في المجتمع، بعكس البدائي الذي ينقل عن آبائه الأمور المحرمة القديمة المتعارف عليها في قبيلته أو في مجتمعه.

٢ - الرجل البدائي يخشى أن يخرق التابو خوفًا من الأضرار الوخيمة التي تقع عليه أو على قبيلته. أما المصاب بالعصاب القهري فهو لا يخاف من أن يقع العقاب على شخصه، بل على أحد أقاربه، أو أحد أفراد عائلته.

* * *

لابد أن القارئ قد لاحظ أننا في دراستنا للتطير لم نتقيد بمنهج مدرسة معينة من مدارس البحث في العلوم الاجتماعية والنفسية، وإنما اصطنعنا المنهج الملائم لطبيعة المشكلة، وهو المنهج الذي يأخذ بأحسن ما في مبادئ الأنثربولوجيا والتحليل النفسي وتجارب الفعل المنعكس الشرطي، بالنسبة لموضوع البحث. فكل من هذه المدارس يلقي

ضوءًا على ظاهرة التطير من زاوية خاصة. وعلى ضوء الملاقات الكثيرة التى أوجدناها بين: التطير والفعل المنعكس الشرطى، وبين التطير فى مجتمعنا والتابو فى المجتمعات البدائية، وبين السحر والتطير، وبين التابو والمرض النفسى، نتناول - فى الفصل التالى - بالتحليل المفصل مجموعة من الأمور المحرمة التي ترتبط بمولد الطفل، والتى تعرف باسم الكوفيد.

الفصل الثامن

الكوفيد

من العادات القديمة التى كانت منتشرة عند كثير من المجتمعات البدائية والمتخلفة، عادة غريبة ترتبط بمولد الطفل، يطلق عليها علماء الأنثربولوجيا اسم الكوفيد. فعندما ترزق الأسرة طفلا، يتصنع الأب القيام بدور الأم، ويعتكف فى الفراش بضعة أيام. ويحرم على نفسه كثيرًا من الأمور: فيمتنع عن تناول أنواع معينة من الأُطعمة، ويتجنب القيام بأى عمل عنيف، ولا يلمس أى نوع من الأسلحة. أما الأم الوالدة فتقوم بعد الوضع لتمارس أعمالها العادية.

وكلمة كوفيد Couvade مشتقة من الكلمة الفرنسية Couver أى يرقد على البيض ليفقس. مع أن هذه العادة لم تعرف مطلقًا فى فرنسا.

والكوفيد عادة قديمة. وقد وصف ديودور الصقلى هذه العادة عند سكان جزيرة كورسيكا القدماء بقوله: عندما يولد طفل لا يهتم أحد بالأم، فبدلا من أن تستريح بعد الوضع، تقوم لتمارس أعمالها العادية. أما الأب فيلزم فراشه بضعة أيام ويحاط بالعناية. وكذلك وصف ماركوبولو هذه العادة. ففى الصين، عندما تضع الزوجة طفلا، تقوم بعد

الوضع بساعات لتمارس أعمالها اليومية. أما الزوج فيعتكف فى فراشه ولا يبرحه لمدة شهر كامل.

وتنتشر هذه العادة فى كثير من أنحاء العالم، فتوجد فى أمريكا الجنوبية في معظم البرازيل. وكانت معروفة عند الهنود الحمر فى كليفورنيا، وعند الدرافيدا فى جنوب الهند، وفى ملبار وعند الداياك فى جزيرة بورنيو، وفى جزيرة سلبيس، وفى جزيرة لوزون بالفلبين، وفى اليابان. وكانت موجودة فى كورسيكا وعند الباسك فى شمال أسبانيا. وإذا استعرضنا مدى انتشار هذه العادة، تبينا أنها توجد فى أمريكا الجنوبية وفى جنوب شرق آسيا بصفة خاصة. ولكنها لا توجد عند بعض الجماعات البدائية كالأستراليين القدماء أو زنوج أفريقية. كذلك لا توجد هذه العادة فى المجتمعات الحديثة الراقية. وعلى ذلك يمكن القول بأن الكوفيد يوجد بصفة خاصة عند الجماعات التى تعتبر وسطاً بين الجماعات البدائية القديمة المتأخرة، والجماعات المتحضرة.

وتتشابه طقوس الكوفيد فى الجوهر، ولا تختلف بين الجماعات التى تمارس فيها إلا فى بعض التفاصيل، كما يتضح من الأمثلة التالية:

فى جنوب الهند، عندما تحس امرأة من قبائل الدرافيدا أنها أوشكت أن تضع، تخبر زوجها، فيرتدى عندئذ بعض ملابسها، وينقش على جبهته العلامة المميزة للنساء، ويعتكف فى حجرة مظلمة، ويلزم فراشه. وبمجرد أن يولد الطفل يغسل ثم يوضع بجانب والده، الذى يناولونه الأدوية والمشروبات التى تحتاج إليها عادة المرأة التى قامت من الوضع. ومعنى ذلك أن تنصرف العناية إلى الأب بدلا من الأم.

وفى جزر سليمان في جنوب المحيط الهادى، تمتنع الحامل عن تناول أطعمة خاصة. وقرب نهاية مدة الحمل تقام بعض الطقوس لتسهيل عملية الوضع. وعندما تشعر الحامل باقتراب موعد الوضع تخبر زوجها، فيحضر لها إحدى قريباتها لتقيم معها، ثم يذهب إلى كوخ آخر يعتكف فيه ولا يبرحه مدة ثلاثة أيام. وفى هذه المدة يحرم على نفسه رفع أى شيء ثقيل الوزن، أو لمس سكين أو فأس أو أى آلة قاطعة، لاعتقاده أنه إذا فعل ذلك أضر بصحة الطفل. وفى اليوم الرابع يسمح له بالذهاب إلى كوخ الأم ليرى الطفل. وفى اليوم الخامس يذهب مع زوجته للاستحمام فى البحر، ويباح لهما بعد ذلك مزاولة أعمالهم العادية.

وعند الداياك فى جزيرة بورنيو، قبل أن يولد الطفل، يمتنع الأب عن تناول الآلات القاطعة أو الصيد أو الأعمال العنيفة حتى لا يؤذى الطفل فى بطن أمه. وبعد أن يولد الطفل يعتزل الأب وحده بضعة أيام فى كوخه، ويقصَر غذاؤه على الأرز والملح حتى لا يؤذى معدة الطفل الوليد!

وعند الهنود الحمر فى غيانة، تواصل الحامل أعمالها العادية إلى ما قبل الوضع بساعات قليلة، عندما تذهب إلى داخل الغابة يصحبها لفيف من النساء لتضع. وفى مدى ساعتين أو ثلاث ساعات بعد الوضع تعود إلى ممارسة أعمالها العادية. أما الأب فيلجأ إلى كوخه ليعتكف فيه، ويحرم على نفسه الغذاء المعتاد، ويكتفى بقليل من الفاكهة، كما يمتنع عن التدخين أو الاستحمام. وتقوم على خدمته نساء القبيلة عدة أيام قد تطول إلى أسابيع.

وفى جزر البحر الكاريبى، عندما يولد الطفل تقوم الأم لتمارس أعمالها اليومية. أما الأب فيعتكف فى كوخه ولا يبرحه. ويصوم مدة ثلاثة أيام، ثم يحرم على نفسه بعد ذلك بعض الأطعمة مثل لحم الخنزير أو لحم السلحفاة، ولحم الطيور والأسماك، حرصًا على عدم إيذاء الطفل الوليد. وفى نهاية مدة أربعين يومًا، يقبل عليه أصدقاؤه فيدمون جلده بأسنان بعض الحيوانات، وعليه ألا يظهر أية علامة على الألم حتى يشب ابنه شجاعًا، لأنه إذا تألم أو صرخ، فقد يشب ابنه جبانًا. وبعد ذلك يأتون بفلفل أسود مطحون ويدلكون به جسمه فى المواضع الدامية.

تفسير الكوفيد :

يقسم علماء الأنثروبولوجيا المعنيون بدراسة حضارات الجماعات البدائية عادات الكوفيد إلى نوعين :

النوع الأول : هو الكوفيد الذى يرمى إلى حماية الطفل. ويوجد فى جنوب الهند بصفة خاصة. وهو يقوم على تحريم تناول بعض أنواع الطعام على الوالدين قبل ولادة الطفل أو بعدها فيمتنعان عن أكل لحم الخنزير أو لحم السلحفاة مثلا، اعتقادًا منهما أن لحومها تؤذى معدة الطفل. كما يعتقد البدائيون كذلك أنه إذا تناول الأب أو الأم من لحم بعض الحيوانات، فإن خصائص هذه الحيوانات تنتقل إلى الطفل. فمثلا تعتقد قبائل الهوتنتوت فى جنوب غرب أفريقية أن الحامل لو أكلت لحم الأسد، فإن الطفل يكتسب شجاعته. وهناك تحريمات أخرى تسرى على الأب، فيحرم عليه تناول الأسلحة، أو الاشتراك فى الصيد أو القيام بالأعمال العنيفة، خوفًا من إيذاء الطفل.

والنوع الثانى: هو الكوفيد القائم على تمثيل الأم، ويوجد فى أمريكا الجنوبية بصفة خاصة. وفيه يعتكف الزوج ويلازم الفراش بدلا من الزوجة التى تقوم بعد الوضع لتمارس أعمالها العادية.

ويعتقد البدائيون أن فترة الوضع من الفترات العصيبة التى تتيح فرصة مؤاتية للأرواح الشريرة التى تكون متربصة للأم والطفل متحفزة لإنزال الضرر بهما. ولذلك يتكفل الأب بحراستهما من القوى الغيبية الشريرة، فهو إذ يقوم بدور بديل للأم ويحل محلها، إنما يخدع الشياطين ويضللها. فلا تلتفت إلى المرأة التى تقوم بأعمالها العادية، وإنما تلتفت إلى الرجل الذى حل محلها، باعتبار أنه أقدر على احتمالها من الأم.

وهذا التقسيم لسهولة الدراسة. لأنه غالبًا ما يوجد النوعان من طقوس الكوفيد معًا. ويندر أن يوجد النوع الواحد منهما فى شكله الخالص المطابق لهذا التقسيم. وكثيرًا ما يختلط النوعان من الكوفيد، فترمى طقوسه إلى حماية الطفل والأم معًا.

يرى فريزر أن طقوس الكوفيد تشبه طقوس السحر ويتعرف فيها على النوعين الرئيسيين للسحر وهما: السحر بالاقتران والسحر بالمحاكاة. فطقوس الكوفيد التى ترمى إلى حماية الطفل بتحريم بعض المأكولات على الأب تقابل السحر بالاقتران، إذ يعتقد الأب أن ابنه جزء لا يتجزأ منه، وأن ما يحدث للأب، يحدث كذلك للابن. فإذا أكل الأب طعامًا عسيرًا، مرض الطفل أو أحس بألم فى معدته. أما طقوس الكوفيد التى تقوم على تقليد الأب لدور الأم، فترمى إلى تيسير الولادة على الأم، وتقابل السحر بالتقليد والمحاكاة، فيقوم الأب بالتزام سريره حتى يحمل عن الأم آلام

الوضع ويحولها إلى نفسه، وكأنما تمثيل الشيء بما يشابهه يحققه، وتقليد الفكرة يؤدى إلى حدوثها.

تفسير الكوفيد فى ضوء التحليل النفسى :

أفرد ثيودور ريك في كتابه «الطقوس» (Ritual) فصلا رائعًا عن الكوفيد قدم فيه تفسيرًا لطقوسه في ضوء التحليل النفسى. واتخذ تقسيم فريزر لنوعي الكوفيد الذى يرمى إلى حماية الطفل، والذى يقوم على تقليد دور الأم أساسًا لدراسته.

الكوفيد الذى يرمى إلى حماية الطفل :

الأمور المحرمة في هذا النوع من الكوفيد تقضى بالامتناع عن تناول أنواع خاصة من المأكولات، وتقييد السلوك بتحريمات أخرى كعدم استعمال الأسلحة أو القيام بأعمال عنيفة. وقد رأينا أن فريزر يفسر هذا النوع من الكوفيد بأنه ضرب من طقوس السحر بالاقتران، فما يصيب الأب، يصيب الابن كذلك. ولكن كيف يضار الابن إذا ما احتطب الأب أو أكل لحم السلحفاة ؟

قد تلقى أعراض العصاب القهرى بعض الضوء على سلوك البدائى. وعندما يصادف رجال التحليل النفسى مثل هذه التحريمات عند العصابيين، فإنهم يتبينون أن دوافعها اللاشعورية هى النزعات العدائية الشريرة المكبوتة حيال الطفل، التى تظهر فى رد الفعل لها عند الأب فى الحرص والإشفاق على صحة الطفل، والمغالاة فى الاهتمام به. إن الوسواس المتسلط الذى يحرم على العصابى إتيان أعمال معينة خشية أن

يصاب أحد المقربين إليه بسوء تشبه تحريم الأب البدائى على نفسه الأعمال العنيفة أو استعمال السلاح أو تناول أنواع خاصة من الطعام، إشفاقًا على ابنه من أن يصاب بمكروه. ومنشأ التحريم فى كلتا الحالتين هو الصراع بين النزعات العدائية القاسية المكبوتة فى اللاشعور نحو الطفل من ناحية، والمحبة الواجبة نحوه والعطف والإشفاق عليه فى الشعور الظاهر من ناحية أخرى. وقد يكون تحريم الأفعال العنيفة أو تناول الأسلحة على الأب مرجعه اعتبارها أفعالا بديلة لتحقيق النزعات العدائية القاسية المكبوتة حيال الطفل. وبذلك تكون التحريمات والتابوات الخاصة بالطفل الوليد عند البدائيين، ونظائرها عند العصابيين، منشؤها واحد هو النزعات العدائية القاسية المكبوتة نحو الطفل التى تفصح عن نفسها فى المغالاة فى الحرص والإشفاق عليه. ويمكن أن نتبين الفارق الهام بين التابو عند البدائيين وعند العصابيين، وهو أن البدائى يتجنب خرق التابو خوفًا من الضرر الذى ينزل به هو، أما العصابى فيمتنع عن إتيان الأمور المحرمة خوفًا من الضرر الذى يحل بأحد المقربين إليه. فسلوك البدائى هو سلوك أنانى ينطوى على الأثرة، أما سلوك العصابى فهو سلوك غيرى ينطوى على الإيثار.

الكوفيد القائم على تقليد الأم :

يقوم هذا النوع من طقوس الكوفيد على محاكاة الأب لدور الأم، فيعتكف ويلازم الفراش، بقصد تيسير الولادة على الأم وتخفيف آلام الوضع عنها بمقتضى السحر بالمحاكاة، وكأنما يؤدى تقليد الفكرة إلى حدوثها. وإذا كان الغرض من اعتكاف الرجل هو

تيسير الوضع على الأم وتخفيف آلامـها اعتقـادًا منـه فـى السـحر بالمحاكاة، فما الدافـع إلى ذلـك؟ هـل هـو خـداع الشيطان وتحويلـه مـن الأم إلى الأب؟

يبين لنا التحليل النفسى أن الاعتقـاد فـى الأرواح والشـياطين إن هـو إلا إسقاط[1] فى العالم الخارجى لنزعات العداء والكراهيـة المكبوتـة. فـإذا وجد صـراع لا شـعورى بـين نزعـات متعارضـة كـالحب والكراهيـة نحـو شخص معين، فإن مما يخفف من حدة التوتر والصـراع إسـقاط النزعـات العدائية فى العالم الخارجى فى صورة شيطان.

ويمكـن أن نفـترض أن علاقـة الرجـل بامرأتـه تقـوم علــى التنــاقض الوجدانى، وتنطـوى علـى الحـب والكراهيـة فـى آن معًـا بحيـث يكـون الحب فى الشعور الظاهر، أما الكراهية أو العداء فتكون لاشـعورية. وهـذه المغـالاة فـى الإشـفاق علـى الزوجـة الأم ومحاولـة تيسـير عمليـة الوضـع وتخفيف آلامه عنها بالسحر بالمحاكاة، فقـد تكـون رد فعـل لا شـعورى يخفى نزعات العداء المكبوتة حيال الزوجة.

---

(١) الإسـقاط عمليـة لا شـعورية تشـبه العمليـة التـى يقـوم بـها جــهاز العـرض السينمائى. فـالصورة التـى نشـاهدها علـى الشاشـة ليـس مصدرهـا الشاشـة، ولكنـها أسقطت عليها من الفانوس أو آلة العزض. وكذلك الإسـقاط فـى الميـدان النفسـى هـو عملية لاشعورية يتم بفضلها للشخص إخراج مـا بداخـل نفسـه مـن مشـاعر محظـورة أو مؤلمة، ونسـبة هـذه المشاعر إلى العالم الخارجى وكأنها صادرة عنـه وليسـت نابعـة من النفس ذاتها.

كذلك يرى التحليل النفسي أن هذا التقليد وتلك المحاكاة التي يقوم فيها الأب بدور الأم، هي مظهر للتقمص الذي كثيرًا ما نصادفه في حالات العصاب بل في الحياة العادية. وبذلك تكون الدوافع اللاشعورية لطقوس الكوفيد التي تجعل الرجل يتقمص دور امرأته الحامل فيعتكف ويلازم فراشه هي النزعات العدائية القاسية المكبوتة في لاشعوره نحو زوجته. وهذه النزعات العدائية اللاشعورية يقابلها في الشعور الظاهر رد فعل أو تعويض يبدو في الإشفاق والمبالغة في الحرص والقلق على سلامة الأم، والرغبة في تيسير عملية الوضع وتخفيف آلامه بطقوس السحر بالمحاكاة. ويظهر الصراع اللاشعوري في نفس الرجل بين هذه النزعات المتعارضة بصفة خاصة في حالة إشراف الأم على الوضع وتسقط هذه النزعات اللاشعورية الشريرة في الخارج في صورة الشيطان الذي يتربص ويتحفز للإيذاء في هذه الفترة العصيبة.

ويتفق هذا التفسير إلى حد كبير مع تفسير فريزر، ويمتاز عنه بأنه يبين الدافع اللاشعوري للكوفيد القائم على تقليد الأم، ولا يقتصر على تفسير أعراضه الخارجية. كما أن تفسير فريزر لا يبين لنا لِمَ يبقى الرجل في فراشه مدة قد تطول إلى شهر أو أكثر بعد انتهاء عملية الوضع؟ في حين تعود زوجته إلى ممارسة أعمالها اليومية العادية. لو أن الغرض من طقوس الكوفيد كان غرضًا سحريًا لانتهى بانتهاء عملية الوضع. والتحليل النفسي يفسر استمرار اعتكاف الرجل بأنه تعبير عن استمرار وجود الدوافع العدوانية والصادية اللاشعورية في نفس الرجل، كما أن

استمرار اعتكافه قد يهدف إلى حماية زوجته من نزعاته الجنسية السادية نحوها.

ولا يفوتنا - فى ختام هذا البحث - أن نشير إلى حقيقة هامة وهى أن معظم الجماعات البدائية التى ورد ذكرها فى هذا الكتاب، قد أخذت بأسباب المدنية الحديثة نتيجة لاتصالها بغيرها من الثقافات والشعوب، فتغيرت معالم حضارتها القديمة، واختفى كثير من العادات والتقاليد والمعتقدات والطقوس التى كانت تميز هذه الحضارات. ولذلك فإن الكثير من الخرافات والتطيرات التى كانت منتشرة بين هذه الجماعات حتى مطلع القرن الحالى، لم يعد له - فى الوقت الحاضر - وجود، إلا كبقايا مترسبة فى معتقدات الناس، تخلفت من آثار الماضى.

خاتمة

هذه الرحلة الطويلة في مجاهل التطيرات والتصورات الخاطئة، أظهرت لنا أن التطير يتفشى مع الجهل والتأخر بين السذج والبسطاء من العامة، وينتشر بين الجماعات البدائية المعاصرة، كما أن له نظيرًا في بعض الأمراض النفسية. فهو ظاهرة شاذة. والرجل السليم لا يتطير ولا يتشاءم، لأنه ينتظر من الدنيا خيرًا، ولا يتوجس منها شرًا. إن ضرر التطير لمن خافه وخشي مغبته، وينعدم أثره عند من يغفل شأنه ويسقطه من حسابه ولا يبالى به. ولابد أن يؤدى انتشار التعليم والثقافة إلى تبديد سحب هذه الخرافات والتطيرات.

وقد نهت جميع الأديان عن التطير. وهذه الآية من التوراة تنهى حتى عن التفاؤل: «متى دخلت الأرض التى يعطيك الرب إلهك، فلا تتعلم أن تفعل مثل رجس تلك الأمم. لا يوجد فيكم من يجيز ابنه أو ابنته فى النار من يتعاطى عرافة، ولا عائق ولا متفائل ولا ساحر ولا من يرقى رقية ولا من يسأل جانًا أو تابعة ولا من يستشير الموتى، لأن كل من يفعل ذلك مكروه عند الرب» تثنية، (إصحاح ١٨).

وكان التطير شائعًا عند الكثيرين من العرب في الجاهلية حتى تكدر بذلك عيشهم وفسد دينهم وتفتحت عليهم أبواب الوسوسة. فلما أقبل الإسلام نهى النبى عليه السلام عن الطيرة فقال: «لا طيرة ولا هامة

ولا سفر». وعن بريدة أن النبى صلى الله عليه وسلم كان لا يتطير. وذكرت الطيرة عند رسول الله فقال: «من عرض له من هذه الطيرة شىء فليقل: اللهم لا طير إلا طيرك، ولا خير إلا خيرك، ولا إله غيرك. اللهم لا يأتى بالحسنات إلا أنت، ولا يدفع السيئات إلا أنت، ولا حول ولا قوة إلا بالله».

فهرس

الصفحة

إشترك فى سلسلة اقرأ تضمن وصولها إليك بانتظام

رقم الإيداع	٢٠٠١/٤٧٠٨
الترقيم الدولى	ISBN 977-02-6120-3

١/٢٠٠٠/١٠٧

طبع بمطابع دار المعارف (ج . م . ع .)



التفاؤل والتشاؤم ظاهرة منتشرة بين الناس منذ عصور قديمة ، فهناك علامات يعتبرها المُتَطَيِّرُونَ نذيرَ سُوءٍ، مثل رؤْيَة البومة، أو الغراب أو المرآة المكسورة، أو الرقم ١٣. وهناك علامات أخرى يعدُّونها دَليل فَأل حَسَن، مثل حدوة الحصان، و «الخمسةَ وخميسة» والتعاويذ، وغيرها.

وهذا الكتاب يُخضع هذه الظواهر للدراسة العلمية المُشَوِّقَة التى تعتمد على المقارنة فى جَمْع الأمثلة الظاهرة، ثم تبويبها وتفسيرها وتحليلها استنادًا للعلوم الاجتماعية.

هذا العدد يُعَدُّ موسوعة مصغرة عن التفاؤل والتشاؤم.



دار المعارف

٤٠٣٤٠٥/٠٢

